أعلام الفقهاء والمحدثين

الفضيل بن عياض التميمي

إمام الحرم وشيخ الحجاز

دكتور عصام محمد الحاج علي
دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي
أستاذ مساعد بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

الإهـــداء

إلى الشرفاء من أبناء «جبل عاملة» المتشبثين بثرى الجنوب، والصابرين على الظلم والقهر بانتظار عودة السيادة إلى أرض الوطن.

* * *

إلى الطائفين والمجاورين بيت الله الحرام، وفي مقدمهم الإمام الزاهد الفضيل بن عياض تكريمًا لذكراه الخالدة.

* * *

إلى أخي البكر «حيدر» وأُختي الكبرى «سكنة» اللذين أرى فيهما ملامح أبي وأمي.

* * *

مع وفائي وحبّي

عصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمة

يشغل المحدّث الزاهد الفُضَيل بن عياض التميمي المرتبة السادسة في سلسلة «أعلام الفقهاء والمحدّثين» التي أخذتُ على عاتقي مهمة تزويدها بسير ذاتية لجمهرة من سادات الأئمة الأعلام الذين كان لهم دور طليعي على الصعيدين الشعبي والرسمي.

فبعد أن تناولت بالبحث «الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك» عرضت لشخصية «الإمام سفيان بن سعيد الثّوري سيّد الحفّاظ» ثم «الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي سيّد المحدّثين» ثم تلا ذلك «الإمام سفيان بن عُيينة الهلالي محدّث الحرم المكّي»، وأخيرًا كانت لي جولة مع «الفقيه الزاهد داود بن نصير الطائي».

وأما الدوافع التي أدّت لاعتماد الفُضَيل بن عياض موضوع بحث أكاديمي؛ فهي أن الرجل قد احتل مكانة

مرموقة في مجتمع عصره على أثر قيامه بنقلة نوعية خلال مسيرته في الحياة، فبعد أن كان يعيش حياة الفوضى والفلتان صحا في وجدانه الوازع الخُلُقي والديني، فارتدع عمّا كان عليه وتاب توبة صادقة، وسلك حياة متوازنة ومثالية، فانكبّ على علم الحديث ليحصل منه معارفه التي كان يُذاكر بها أقرانه وإخوانه، ولما اكتفى من تحصيل علومه، وذاعت شُهرته، عاد فتخلّى عن كل ذلك وشغل نفسه بالعبادة والتقوى والزهد والورع، ثم خَطَا مع المريدين والعارفين، فاختار العُزلة وجاور البيت الحرام.

إضافة إلى ذلك؛ كان الفُضَيل محطّ أنظار كبار القوم من العلماء والحكّام، فهو بنظر عبد الله بن المبارك يُعَدّ من «الأبدال»[1] وهو أيضًا «خير الناس»، وأفضل مَن على وجه الأرض في عصره. ويرى فيه القاضي شريك بن عبد الله «حُجّة لأهل زمانه». أما سفيان بن عُيينة؛ فكان يُبجّله ويبالغ في احترامه حتى أنه شُوهِدَ وهو يقبّل يديه.

---

(١) الأبدال: قومٌ من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحدٌ منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر، والواحد بديل (الإمام محمد الرازي، مختار الصحاح، تحقيق لجنة من العلماء، ص ١٠٦، بيروت: دار الفكر، ١٢٩٣/١٩٧٣).

وإلى جانب تقدير هؤلاء الأعلام للفُضَيل؛ فقد كان الحكّام يجلّونه ويُحسِنون الظن به، فباعتراف الخليفة العباسي هارون الرشيد: «ما رأت عيناه مثله»، وهو برأيه أورع العلماء قاطبة، بل هو «سيّد المسلمين» في ـمانه.

إن هذه الأمور مجتمعة جعلت من تاريخ الفُضَيل مادة دسمة تشوق الباحثين للعمل فيها، لذا عمدتُ إلى جمع أخباره من المصادر الأصيلة، وتتبّعت الجوانب الغامضة من سيرته، حتى تكوَّن لديّ صورة متكاملة عن شخصيته، فعملت على دراستها وإخراجها بموضوعية مبنية على التحليل والمناقشة، تاركًا مهمة الحكم على جوانبها الإيجابية والسلبية، للنقّاد الجادّين والقرّاء العارفين الذين تستهويهم هذه الدراسات التي أهملت، عن غير قصد لفترة ليست بقصيرة.

وأول ما يهدف إليه هذا البحث، الذي تكمن أهميته في لفت الأنظار إلى أعلام الأمة، الذين قدّموا حياتهم من أجل إحياء العلم والوفاء للمبادىء والقيم الإنسانية، التي تطالب بإحقاق الحق ونشر العدالة، والتنبّه للظلم والفساد الاجتماعي.

فالهدف الأول لهذه الدراسة إذًا يتلخّص في إبراز شخصية الفضيل، الذي يُعَدّ من بين أعلام المحدّثين وأحد أشهر المُصلحين الاجتماعيين والسياسيين، ومما يجعله موضع عناية واهتمام الآخرين، أنه بدأ حياته كفرد غريب عن مجتمع عصره، فهو لم يتورّع عن ارتكاب المعاصي ونشر الفساد في الديار الآمنة، وفجأة حصل في حياته التغيير الكبير فترقّت به الأحوال الفكرية والإيمانية حتى ساد أهل زمانه علمًا وعملاً وأصبح مثلاً يُحتذَى به.

وبكل حال، إن هذه الدراسة تتضمن مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، يضاف إلى ذلك، الملاحق وثَبْت للمصادر والمراجع وفهرس الموضوعات. وقد تضمنت المقدمة: دوافع اختيار البحث وأهميته وأهدافه، وخلصت بعرض شامل للخطة المعتمدة.

أما الفصل الأول؛ فيتناول الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان حتى قيام الثورة العباسية ومغادرة الفضيل بلد المنشأ، وانتقاله إلى الكوفة التي كانت شاهدًا حيًا على تحوّله نحو البناء والإصلاح؛ ويهدف هذا التقديم التاريخي إلى تسليط الأضواء على الوضع السياسي العامّ الذي كان سائدًا إبّان مولد الفُضَيل ونشأته، لندرك من خلال ذلك مدى

تأثير تلك الحالة المتوترة والمضطربة في مسلكية الرجل الذي ربما اغتنم حالة الفوضى السياسية والتدهور الأمني وانخرط مع جماعة الشطّار[١] والعيارين[٢] الفارّين من الظلم الاجتماعي والباحثين عن مورد للعيش، ولو بشكل غير مشروع بعد أن تخلّت عنهم السلطات الحاكمة المنهمكة في الصراعات الداخلية والعصبيات المحلية.

ويتناول الفصل الثاني؛ مولد الفضيل ونشأته العلمية، ثم مكانته الفكرية ومجالسه العلمية وهذه الأمور تُظهِر أهميته بين مُعاصِريه. بعد ذلك؛ يعرض نظرته إلى علم الحديث وموقفه من العلماء حيث يدعوهم للبقاء أعزّة في طبقات المجتمع، ولما لم يجد لدعوته صدًى أعلن عن موقفه الرافض لأصحاب الحديث الذين شوّهوا الصورة المتألّقة التي رسمها الناس لهم، وتوّج ذلك كله بفلسفة خاصّة به أظهر من خلالها مبدأه من العُزلة وبُعده عن مخالطة الناس خاصّتهم وعامّتهم.

---

(١) هم فئة اجتماعية ظهرت وانتشرت في المدن الإسلامية، وكانت تقوم بأعمال تختلط فيها الشجاعة والنخوة بإيذاء الناس والتعدّي عليهم، وقد استفحل خطرهم في العصور المتأخرة.

(٢) رجل عيار: أي كثير التطواف والحركة، ويسمى الأسد عيارًا لمجيئه وذهابه في طلب صيده (مختار الصحاح، ص ٤٦٥).

ويعالج الفصل الثالث؛ حياته الدينية بما فيها عبادته وتقواه، فتطرّق إلى ممارسته للعبادة الحقّة، كما يُظهِر خوفه وهلعه وهو بين يدي الجليل عزّ وجلّ، ثم يتناول نشاطه في موسم الحج، وموقفه من قضية الجهاد والمبررات التي يشفع بها للدفاع عن نفسه، ثم يعرض موقفه من القرآن الكريم ومدى اهتمامه به وبتفسير وشرح دقائق آياته التي فيها درس وعِظَة، وهذه النفحة الإيمانية التي عُرِفَ بها الفُضَيل جعلته وجهًا لوجه إزاء أهل البِدَع، الذين يعملون عن قصد على ثَلْم عُرَى الإسلام، ويخلص هذا الفصل بإعطاء صورة حيّة عن زهد الفضيل وورعه ومدى انسجام ذلك مع زهد الصحابة والسلف الصالح.

ويبحث الفصل الرابع في آخر نشاطات الفضيل ونهايته، وهو يتضمن ثلاثة محاور، يركّز المحور الأول على نشاطه الاجتماعي الذي يتوضّح أولاً من خلال أقواله وحِكَمه، ثم عبر نصائحه ومواعظه ووصاياه التي كان يجود بها على أصحابه وإخوانه.

وأما المحور الثاني؛ فيتناول دوره السياسي المتمثّل بصلته وعلاقته بالخلفاء العباسيين، فيبدأ يعرض موقفه المبدئي

من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن مخالطة السلاطين وتولّي مناصبهم وأخذ هِباتهم، ثم يُسهِب بعض الشيء في الحديث عن علاقته بالخليفة هارون الرشيد، فيبيّن مدى التجاذب والتنافر القائم بين الرجلين، وبالتالي دخول كلٍّ منهما على الآخر وِفق ما تُمليه عليهما المصلحة العامّة.

وفي المحور الثالث؛ يعطي صورة واقعية عن نهايته وصراعه مع الموت ومناجاته ربّه وهو في النزع الأخير، ثم يتطرّق إلى تأثيره في الناس والذي تمثّل برؤاهم له، وخلص إلى تقويمه وإظهار موقعه من خلال تزكية أصحابه له وأقوالهم فيه.

وأخيرًا؛ جاءت الخاتمة ملخّصة لأهم النتائج التي توصلت إليه هذه الدراسة كما حاولت وضع الفُضَيل في مكانه الصحيح بين مُعاصِريه، دون أن تفوتها الإشارة إلى دوره القياديّ في إصلاح المجتمع عبر إسداء النّصح لعامّة الناس وحكّام الأمة، ولا ريب أن في ذلك دعوة غير معلنة، للباحثين العرب من أجل الاهتمام بهذا الجانب من البحوث لما لها من أهمية في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي.

وبعد؛ لا أجد ضرورة للحديث عن المصادر والمراجع التي اعتمدتها خلال إعداد هذه الدراسة، خصوصًا وقد

أودعتها مفصّلة في آخر هذا الكتاب، والذي يهمّني في النهاية؛ أن أكون قد وُفِّقتُ في إنجاز هذا العمل المتواضع، كما آمل أن يكون هذا البحث جديرًا بأن يأخذ مكانته في المكتبة العربية.

ويبقى الله وحده وليّ التوفيق.

دكتور عصام محمد الحاج علي

النبطية ـ جنوب لبنان

في ١٠ ذي الحجة ١٤١٤

٢١ أيار ١٩٩٤

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان حتى مغادرة الفُضَيل إلى الكوفة

وُلِدَ الفُضَيل بن عياض التميمي سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م بسمرقند أعظم مدينة بما وراء النهر[١]، في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ ١٢٥/ ٧٢٤ـ ٧٤٣)، ونشأ بخُراسان بكورة أبيورد الواقعة بين سَرْخَس ونَسَا، حيث انضم إلى قُطّاع الطرق، ثم انتقل إلى الكوفة موطنه الأصلي وهو شاب، أحسبه في العقد الثالث من العمر، فأقلع عن ممارسة الفساد وتاب إلى ربّه وانكبّ على تحصيل علم الحديث، ثم ترك الكوفة متوجهًا إلى مكة المشرّفة فتزهّد فيها، واعتزل حياة الناس وتفرّغ للعبادة والتأمّل والمناجاة.

---

(١) النهر المشار إليه، هو نهر جيحُون يقع شمال حدود خُراسان، وقديمًا كان يسمى: آموداريا، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق الجندي، ج ٢، ص ٢٢٧، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠/ ١٩٩٠؛ وعن أموداريا انظر:
Encyclopédie de l'Islam (art Amû - Daryâ) t1, p.344 sqq; 2éd, p.454 - 5.

واستمر الفُضَيل مُقيمًا بمكة حتى وافته المنيّة سنة ١٧٨/ ٨٠٣ في خلافة هارون الرشيد (١٧٠ـ ١٩٣/ ٧٨٦ـ ٨٠٩)، عن عمر يُناهز الثمانين سنة، وبهذا يكون الرجل قد عاصر خمسة خلفاء من العهد الأموي، هم:

هشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد الجَعْدي. كما عاصر خمسة خلفاء من بني العباس، هم:

أبو العباس السفّاح، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدي بن المنصور، وموسى الهادي بن المهدي، وهارون الرشيد بن المهدي.

وبما أن الفُضَيل قد وُلِد في بلاد ما وراء النهر؛ فلا حرج لو أعطينا نبذة عن تلك المنطقة[1]، قبل أن ننتقل إلى خُراسان ونبحث في الحالة السياسية التي شهدتها البلاد خلال إقامة الفُضَيل فيها.

---

(١) من الدراسات التي تهتم بتاريخ بلاد ما وراء النهر؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، (ص ٢٠٨ـ ٢٢٧)، ط ٣، بيروت: مكتبة الجامعة، ١٩٦٦؛ شعيرة، الممالك الحليفة أو ممالك ما وراء النهر، بحث مُستخرَج من مجلة كلية الآداب، جامعة فاروق، المجلد الرابع، ١٩٤٨.

١ـ الحالة السياسية في بلاد ما وراء النهر:

الثابت تاريخيًا؛ أن العرب قد وسّعوا فتوحاتهم إلى البلاد التي سمّوها: ما وراء النهر، التي كان نهر جيحون يقع إلى جنوبها، وبلاد خوارزم إلى غربها؛ أما حدودها في الشرق والشمال فلم تكن واضحة(١)؛ ففي الشرق قد تدخل فيها بعض بلاد الصين، وفي الشمال كانت تمتدّ إلى النهر المشهور في حدود بلاد الترك باسم: سيحون(٢). وكان يسكن هذه البلاد خليط من الشعوب الآسيوية أغلبهم من الفرس والترك(٣).

وتعتبر أشهر الممالك في وسط ما وراء النهر، هي مملكة الصفد، التي تمتد من جيحون إلى سيحون؛ وهي عبارة عن بلاد واسعة تشمل قرى ومدن متصلة، بحيث اعتبرها العرب من أجمل بلاد الله. وأكثرها عمارة(٤) وكانت الصُغد تتكوّن من وحدات سياسية

---

(١) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٤، ص٤٣١، القاهرة: وزارة الثقافة والمؤسسة المصرية، د.ت.

(٢) معجم البلدان، ج ٥، ص ٥٤ وما بعدها؛ وعن نهر سيحون؛ انظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٤. وقديمًا كان يسمى سيرادريا، عنه انظر: Ency. de l'Isl. (art sir Daryâ) t4, p.468.

(٣) أحمد بن يحيىٰ البلاذري، فتوح البلدان، بعناية رضوان رضوان، ص ٤١٥، ٤١٧، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨/١٩٧٨.

(٤) معجم البلدان، ج ٥، ص ٥٤ـ٥٦؛ صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٣٣؛ انظر: Ency. de l'Isl. (art soghd) t4. p.493 - 4.

مستقلة قبل الإسلام، أهمها: سَمرقَند وهي قصبة الصُغد[١]، ومسقط رأس الفُضَيل بن عياض[٢]. وكانت تنازعها السيادة مدينة بخارى[٣]. فكان يقال: الصُغد صغدان، صغد سمرقند وصغد بخارى[٤].

والواضح؛ أن العرب منذ استقرارهم في خُراسان بدأوا يتحرشون ببلاد ما وراء النهر، ورغبوا فيها لكثرة خيراتها[٥]، ولكن طلائع سراياهم وبعوثهم لم تتوجّه إليها قبل عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ـ ٦٠/ ٦٦١ـ ٦٨٠)، ولما فكّروا في غزوها اتخذوا مرو قصبة خراسان، قاعدة لعملياتهم العسكرية، ومنذ سنة ٤٥/ ٦٦٥ أنزلوا جنودهم فيها استعدادًا للغزو[٦].

وبشهادة اليعقوبي[٧]، كان أول مَن عبر النهر عبيد الله بن

---

(١) معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٩.
(٢) محمد بن حبّان البستي، كتاب مشاهير علماء الأمصار، بعناية فلايشهمر، ص ١٤٩، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/ ١٩٥٩.
(٣) صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٣٣ـ ٤٣٤.
(٤) معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٤.
(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٤ وما بعدها.
(٦) فتوح البلدان، ص ٤٠٠.
(٧) أحمد بن واضح المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٣٦ـ ٣٣٧؛ بيروت: دار صادر، ١٣٧٩/ ١٩٦٠؛ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام. ص ٢٩، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

زياد في سنة ٥٤/ ٦٧٤، ومن بعده سعيد بن عثمان في سنة ٥٥/ ٦٧٥[١]. وفي عهد يزيد بن معاوية (٦٠- ٦٤/ ٦٨٠- ٦٨٣)، عبره سلم بن زياد ومعه المهلب بن أبي صفرة في سنة ٦١/ ٦٨٠[٢].

بعد ذلك؛ توقفت الحملات بسبب اضطراب الأوضاع في دولة بني أُميّة، ثم عاد الغزو بشكل غير منتظم، ففي سنة ٧٧/ ٦٩٦، عبر النهر أُميّة بن عبد الله بن خالد عامل خراسان[٣]. ولما أضاف عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦/ ٦٨٥- ٧٠٥)، خراسان إلى عمل الحجّاج بن يوسف الثقفي[٤] غزاها هذا الأخير بواسطة عمّاله؛ فغزاها مرات عديدة المهلّب بن أبي صفرة، الذي ولّيها بعد عزل أُميّة في سنة ٧٨/ ٦٩٧[٥].

ولمّا تولّى يزيد بن المهلّب عمل خراسان كانت غاراته محدودة، ربما لوقوع فتنة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي في

---

(١) ويقول البلاذري أن سعيدًا كان أول مَن قطع النهر بجنده، ص ٤٠١.
(٢) عز الدين علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٩٦، بيروت: دار صادر، ١٣٨٥/ ١٩٦٥؛ والمهلّب بن أبي صفرة: هو أزدي من اليمن، كان بطلاً شجاعًا حازمًا، له فتوحات كثيرة، فقئت عينه في غزوة سمرقند أو بالطالقان، ومات بخراسان سنة ٨٢/ ٧٠١ وله نيّف وسبعون سنة (فتوح البلدان، ص ٤٠١؛ دول الإسلام، ص ٤٨).
(٣) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٤٧.
(٤) عن سيرة الحجّاج، انظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢٢٢- ٢٢٤، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/ ١٩٨٧.
(٥) الكامل، ج ٤، ص ٤٤٨، ٤٥٣؛ دول الإسلام، ص ٤٦.

سنة ٨١/ ٧٠٠، والتي انتهت بوفاة عبد الرحمن على يد الحجّاج في سنة ٨٤ ـ ٨٥/ ٧٠٣ ـ ٧٠٤[١]، في هذه الأثناء كان يقوم بمهمة الغزو خلف النهر موسى بن عبد الله بن خازم[٢]، الذي سرعان ما قتل في سنة ٨٥/ ٧٠٤ على يد المفضل بن المهلّب الذي تولّى عمل خراسان بعد أخيه يزيد[٣].

وبشهادة ابن الأثير[٤]؛ فإن سياسة فتح بلاد ما وراء النهر لم تنتظم إلاّ في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦/ ٧٠٥ ـ ٧١٥) وبخاصة بعدما عزل الحجّاج المفضل بن المهلّب من عمل خراسان، وولّى مكانه القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي[٥]، الذي ما إن وصل إلى خراسان حتى عرض الجند

(١) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ص ٣١٦ وما بعدها، بغداد: مكتبة المثنى د.ت؛ علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣، ص ١٣١ وما بعدها؛ بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.
.Ency. de Isl. (art abd - al - . Rahman B.al - Ash'ath) t1, p.57 - 58.

(٢) استقل موسى بن عبد الله بن خازم بخراسان بمعزلة عن الدولة الاموية (الأخبار الطوال، ص ٣٠٧).

(٣) الكامل، جـ ٤، ص ٥٠٢، ٥٠٥ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٢٣، ٥٣٥، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٧١، ٥٨١.

(٥) كان عاملاً على خراسان من قبل الحجّاج فبقي فيها ثلاث عشرة سنة فافتتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وقتل بفرغانة سنة ٩٧/ ٧١٥ على يد وكيع بن أبي مدور التميمي وهو ابن خمس وأربعين سنة (المعارف، ص ٢٣٠).

وخطبهم وحثّهم على الجهاد[١]. ونتيجة لذلك فقد تمكّن قتيبة من غزو بلاد ما وراء النهر كل عام تقريبًا إلى حين وفاة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦/ ٧١٥، فافتتح خلالها كل ما وراء النهر[٢]، وكانت أولى غزواته في سنة ٨٧/ ٧٠٦[٣].

أما بالنسبة لسياسة قتيبة في سمرقند؛ التي كان قد بناها الإسكندر[٤]، فقد صالحها قتيبة في عام ٩١/ ٧٠٩، ولكنه لم يلبث أن عاد فوجّه حملاته نحوها لأنها نقضت العهد[٥]، فنصب المجانيق[٦] أمامها، ودخلها من ثلمة أحدثها في سورها، حتى هرب معظم أهلها، فلما دخلها أحرق أصنامها، وبنى مسجدها في سنة ٩٣/ ٧١٢[٧].

ولما تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز[٨] (٩٩- ١٠١/

---

(١) الكامل، جـ ٤، ص ٥٢٣.
(٢) الأخبار الطوال، ص ٢٨٠.
(٣) معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨١.
(٤) الكامل، ج ١، ص ٢٨٨، لم يذكرها الدينوري في مجموعة البلدان التي بناها الإسكندر، الأخبار الطوال، ص ٣٩.
(٥) الكامل، ج ٤، ص ٥٧١.
(٦) المجانيق ومجانق ومنجنيقات مفردها المنجنيق، وهي آلة حربية تُرمى بها الحجارة والأصل فارسي، مختار الصحاح، ص ١٠٦.
(٧) الكامل، ج ٤، ص ٥٧١ وما بعدها، قابل رواية الدينوري، ص ٣٢٧- ٣٢٨.
(٨) قال الشافعي: الخلفاء الراشدون خمسة فذكره بينهم، (دول الإسلام، ص ٦٠).

٧١٧ـ ٧٢٠)، وفد عليه جماعة من وجهاء سمرقند، وذكروا له ما نزل بهم من الحيف خلال وجود قتيبة بين أظهرهم، فكتب عمر إلى عامله يوصيه بهم خيرًا، ويأمره بردّ الحقوق إلى أصحابها[١].

ولكن فترة الأمان سرعان ما تلاشت، وساءت حالة أهل سمرقند بسبب سوء معاملة الولاة لهم، ولا سيما على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ ١٢٥/ ٧٢٤ـ ٧٤٣).

فذكر ابن الأثير أنه في سنة ١١٠/٧٢٨، كتب عامل خراسان ويُسمى أشرس السلمي، إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فشخص أبو الصيداء إلى سمرقند وعليها الحسنُ بن العَمَرّطة الكندي، فدعا أهلها ومَن حولها إلى الإسلام على الشرط الذي اقترحه أشرس، فسارع الناس إلى ذلك[٢].

غير أن الأخبار التي وصلت إلى خراسان، ومفادها أن «الخراج قد انكسر»، جعلت أشرس يغيّر رأيه، ويكتب إلى عمّاله أن يستمروا في أخذ الخراج على مَن أسلم لأن فيه قوة للمسلمين، وفرض الجزية، وعزل العمّال الذين لم يوافقوه؛ مما جعل أهل سمرقند يثورون ويرتدّون عن الإسلام[٣].

---

(١) الكامل، ج ٥، ص ٦١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٧ وما بعدها.

ولم يخفّف من غضب الموالي في سمرقند وسائر بلاد ما وراء النهر، إلاّ لما بعث هشام على عمل خراسان نصر بن سيار[1] الذي عاد إلى سياسة عمر بن عبد العزيز في حكم هذه البلاد[2] الأمر الذي جعلهم يُقْبلون على الإسلام، فأقام المظالم، وعفا عن المرتدّين، ووضع الجزية عمّن أسلم، مما أبقى على سيطرة الخلافة الأموية عليهم[3].

على كل حال؛ فإن الذي نريد أن نبيّنه هنا، هو أن والد الفضيل ربما كان في عداد رجال هذه السرايا التي دخلت بلاد ما وراء النهر، وقد أشار يحيىٰ بن معين إلى جانب من تلك الحقيقة، فذكر أن القاضي شريك بن عبد الله، وسفيان بن سعيد الثّوري، وإسرائيل بن يونس، وفُضَيل بن عياض وغيرهم من فقهاء الكوفة، ولدوا بخراسان، وكان يضرب على آبائهم البعوث، فيتسرّى بعضهم ويتزوّج بعضهم، فلما أقفلوا جاء بهم آباؤهم إلى الكوفة[4].

---

(١) عن سيرته انظر: المعارف، ص ٢٣١؛ وأيضًا:
Ency. de l'Isl, (art Nasr B. Sayôr) t3, p.933 - 935.

(٢) الكامل، ج ٥، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٣٦.

(٤) تاريخ يحيىٰ بن معين، تحقيق عبد الله حسن، ج ٢، ص ٢٧٩-٢٨٠، بيروت: دار القلم، د.ت؛ شمس الدين الذهبي؛ سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط، ج ٧، ص ٢٤٢، ط ٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/١٩٨٦.

والملاحظ؛ أن الفُضَيل لم يعد به والده إلى الكوفة كما ذكر ابن معين، وإنما انتقل من سمرقند إلى خراسان، حيث نشأ وترعرع بكورة أبيورد، والمؤسف أننا لم نستطع تحديد السنة التي ترك فيها الفُضَيل مسقط رأسه، كما وإن المصادر لم توضح إذا ما كان قد انتقل برفقة أبيه، أم أن أباه قُتِل أثناء المعارك الدائرة هناك أو بُعَيد عودته إلى خراسان.

مهما تكن الحقيقة؛ فالواضح أن عياض التميمي لم تسمح له الظروف ليتتبّع مراحل حياة ابنه الفضيل وهو مقيم في خراسان، وذلك لأسباب نجهلها ومما يعزّز هذا الرأي؛ هو ما نشأ عليه الفُضَيل من ممارسة السلب والنهب في أبيورد، ولو كان أبوه حيًّا أو مشرفًا على تربيته لما سمح له بذلك، خصوصًا وهو واحد من الجند الذين قصدوا بلاد ما وراء النهر حاملين معهم المبادىء الإنسانية ليعملوا على نشرها في البلدان التي يتمّ لهم فتحها.

وبكل حال؛ فإن نشأة الفُضَيل بخراسان جعلته على مقربة من الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة، بخاصة وقد أصبح في عمر يساعده على فهم ما يحصل حوله من تطورات ومستجدّات على الساحة الإسلامية.

٢ـ الأوضاع السياسية في بلاد خراسان:

لا نغالط إذا قلنا إن التطورات السياسية التي شهدتها بلاد ما وراء النهر، كانت متقاربة إلى حدٍّ بعيد مع ما يدور من أحداث في بلاد خراسان لأن الولاة الذين تولّوا عمل خراسان، كانوا هم

المعنيين بغزو ما وراء النهر، مع ما يرافق ذلك من متغيرات كانت تفرضها الظروف البيئية والسكّانية، وما ينتج عنها من إيجابيات وسلبيات، تترجم عمليًا بتأييد لنظام الحكم حينًا، وبرفض ومعارضة له في أحيانٍ أخرى.

مهما يكن؛ فإنه لا بدّ من القول: إذا كان المسلمون لم يقرعوا أبواب بلاد ما وراء النهر بشكل حاسم قبيل عام ٥٤/ ٦٧٤، فإن طلائعهم بلغت خراسان في سنة ٢٢/٦٤٣ زمن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣/ ٦٣٤ـ ٦٤٤) وكان على رأس الفاتحين الأحنف بن قيس فقال عمر يومها: «وددتُ أن بيننا وبينها بحرًا من نار»[1]. ولما قُتل عمر نقض أهل خراسان وغدروا فسار إليهم عبد الله بن عامر بن كُريز سنة ٣١/ ٦٥١[2] وتمكّن من فتح أبيورد[3]، المدينة التي نشأ فيها الفضيل.

وقد كانت خراسان تضمّ البلاد الواسعة التي أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند، وامتدت إلى بلاد ما وراء النهر. وهي تشتمل على أمّهات من البلاد منها: نيسابور، وهراة، ومرو[4]، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلّل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون، ومن

---

(١) الكامل، ج ٣، ص ٣٤ وما بعدها؛ قابل فتوح البلدان، ص ٣٩٤.
(٢) الكامل، ج ٣، ص ١٢٣ وما بعدها.
(٣) معجم البلدان، ج ١، ص ١١٠.
(٤) أول مَن بناها الإسكندر وفق رواية الدينوري (ص ٣٩).

الجغرافيين مَن يدخل أعمال خوارزم فيها ويعدّ ما وراء النهر منها[1]. وربما لهذا السبب كثرت مغالطات المؤرّخين إبّان تحديد مكان ولادة الفُضَيل بن عياض.

والجدير ذكره؛ أن خراسان في عهد الخلفاء الراشدين وفي أوائل عهد الخلفاء الأمويين، كانت تابعة إداريًا لمصر البصرة، ولكن سرعان ما أصبحت قطرًا قائمًا بذاته، بحيث أصبح مَن يتولاّها له أهمية كبرى، لهذا قيل: «ما خرجت من خراسان راية في جاهلية وإسلام فرُدَّت حتى تبلغ منتهاها»[2].

وذكر البلاذري؛ أنه أول عامل على خراسان كان عبد الرحمن بن أبزى مولى خزاعة[3]، وفي سنة ٣٧/٦٥٨ تولاّها جَعْدة بن هُبيرة المخزومي بأمر من الإمام علي بن أبي طالب (٣٥ـ ٤٠/ ٦٥٦ـ ٦٦١)، فانتهى إلى نيسابور، وقد كفروا وامتنعوا، فرجع إلى علي، فبعث خُلَيْد بن قُرّة اليربوعي، فحاصر أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مرو[4].

وفي زمن معاوية بن أبي سفيان، تولاّها قيس بن الهَيثم السُّلَمي سنة ٤١/ ٦٦١، ثم عزله معاوية وولّى خالد بن المعمر، فلما مات خالد ضمّها إلى عبد الله بن عامر والي البصرة، فبقي

---

(١) معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٢.
(٣) فتوح البلدان، ص ٣٩٩.
(٤) الكامل، ج ٣، ص ٣٢٦؛ (وذكر الدينوري بدلاً من خُليد بن قُرّة اسم خليد بن كاس) ص ١٥٣.

ابن عامر في مِصره وأرسل إلى خراسان قيس بن الهيثم فتولاّها للمرة الثانية، ثم عاد فعزله وعيّن عبد الله بن خازم[(١)].

بعد ذلك آل أمر خراسان إلى الحكم بن عمرو الغِفاري، وكان رجلاً عفيفًا وهو من أصحاب رسول الله (ﷺ)، فمات بخراسان[(٢)] وقد استخلف عند موته أنس بن أبي أُناس، ولكن زياد بن أبي سفيان[(٣)] عامل معاوية على الكوفة والبصرة، أصدر أوامره بعزل أنس وتولية خُليد بن عبد الله الحنفي. وفي سنة ٥١/ ٦٧١، وجّه زيادٌ الربيع بن زياد الحارثي أميرًا على خراسان، وسيّر معه خمسين ألفًا بعيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة[(٤)].

ولما مات زياد سنة ٥٣/ ٦٧٣؛ استعمل معاوية عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة[(٥)]، وفي سنة ٥٦/ ٦٧٥ عزله معاوية وولّى سعيد بن عثمان بن عفّان، فلما قَدِمَ خراسان قطع النهر إلى سمرقند فقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم في مدينتهم، فصالحوه وأعطوه رُهُنًا منهم خمسين غلامًا من أبناء

---

(١) فتوح البلدان، ص ٣٩٩؛ وعن دوافع عزل ابن الهيثم وتولية ابن خازم؛ انظر: الكامل، ج ٣، ص ٤٣٧-٤٣٨.

(٢) فتوح البلدان، ص ٤٠٠.

(٣) عن سيرته انظر: المعارف، ص ١٩٥ وما بعدها.

(٤) الكامل، ج ٣، ص ٤٨٩. ولا أجزم إذا كان والد الفُضَيل أو عائلة جدّه كانت من عداد هذه الجموع.

(٥) فتوح البلدان، ص ٤٠١.

عظمائهم[1] . ثم استعمل معاوية عبد الرحمن بن زياد وكان ضعيفًا لم يغزُ غزوةً واحدةً، وبقي بخراسان إلى أن قتل الحسين بن علي (ع)[2] في سنة ٦١/ ٦٨٠[3] .

وفي عهد يزيد أيضًا؛ تولّى خراسان سلم بن زياد، فلما مات يزيد سنة ٦٤/ ٦٨٣ شخص سلم عن خراسان وأتى عبد الله بن الزبير بمكة[4]. فأغرمه أربعة ملايين درهم وحبسه، ثم ولّى مكانه عبد الله بن خازم السلمي[5] . في هذه الأثناء ورد كتاب عبد الملك بن مروان على ابن خازم بولاية خراسان، فأطعم رسوله الكتاب، وقال: «ما كنت لألقى الله وقد نكثت ببيعة ابن حواري رسول الله (ﷺ) - يعني ابن الزبير - وبايعت ابن طريدة - يعني عبد الملك»[6] فكتب عبد الملك إلى بُكير بن وساج بولاية خراسان فحارب ابن خازم وقتله وأرسل برأسه إلى عبد الملك فنصّبه بدمشق[7] .

---

(١) الكامل، ج ٣، ص ٥١٢.
(٢) عن سيرته؛ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٢، ص ١٨ فما بعدها، مصر: ١٢٨٥هـ؛ أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، ص ٥٧ وما بعدها، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨.
(٣) الكامل، ج ٣، ص ٥٢١.
(٤) عن سيرته انظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص ١٦٢؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٣١١، مصر: مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.
(٥) فتوح البلدان، ص ٤٠٣-٤٠٤.
(٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٥-٤٠٦.
(٧) الكامل، ج ٤، ص ٣٤٥.

على أثر ذلك؛ اشتعلت الفتنة بخراسان بين أنصار ابن خازم وأنصار ابن وساج، فكتب وجوه أهل خراسان إلى عبد الملك يُعلِمونه أنه لا تصلح خراسان إلاّ برجل من قريش، فولّى أميّة بن عبد الله بن خالد[1]. فلما أصبحت خراسان من ضمن عمل الحجّاج بن يوسف الثقفي ولّى عليها المهلّب بن أبي صُفرة حتى وفاته، ثم استعان بولديه: يزيد بن المهلّب ثم المفضل[2] بعد ذلك؛ ولّى الحجّاج قُتيْبة بن مُسلم الباهلي[3]، فبقي في خراسان حتى مات الوليد بن عبد الملك عام ٩٦/ ٧١٥. وكان قتيبة مستوحشًا من سليمان بن عبد الملك، وذلك لأنه سعى في بيعة عبد العزيز بن الوليد، فأراد دفعها عن سليمان الذي ما إن تولّى الخلافة (٩٦- ٩٩/ ٧١٥- ٧١٧) حتى عزل قتيبة وحرّض على قتله، ففتك به وكيع بن حسّان وبعث برأسه إلى سليمان، فسُرّ بذلك وأرسل إلى يزيد بن المهلّب بعهده على خراسان[4].

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١/ ٧١٧- ٧٢٠)، صدرت أوامر عمر بالقبض على يزيد بن المهلّب وتولية الجرّاح بن عبد الله الحكْمي عام ١٠٠/٧١٨[5] وأوصاه

---

(١) فتوح البلدان، ص ٤٠٦.
(٢) الكامل، ج ٥، ص ٤٧٥، ٥٠٢.
(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢ وما بعدها. وعن مُلابسات تولية يزيد بن المهلب، انظر: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٣ وما بعدها.
(٥) الكامل، ج ٥، ص ٤٩. وذكر البلاذري أنه تولّى خراسان بعد يزيد أخيه المفضل بن المهلب (فتوح البلدان، ص ٤٠٨).

برفع الجزية عن الذين أسلموا بخراسان، وفرض العطاء لمَن أسلم وابتنى الخانات. ثم كتب الجرّاح إلى عمر أنه لا يصلح أهل خراسان إلاّ السيف والسوط[1]. فأنكر عمر ذلك، وكتب إليه: «يا ابن أُمّ الجرّاح، أنت أحرص على الفتنة منهم، لا تضربنّ مؤمنًا ولا معاهدًا سوطًا إلاّ في الحق...» ثم عزله وولّى عبد الرحمن بن نُعيم، فلم يزل فيها حتى مات عمر[2].

وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ـ ١٠٥/ ٧٢٠ـ ٧٢٤) تولّى العراق وخُراسان مَسْلَمَة بن عبد الملك[3]، فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد خُذَيْنة[4] سنة ١٠٢/ ٧٢٠، وكان سعيد صهر مسلمة على ابنته، فلهذا استعمله على خراسان[5]، فلما سار إليها ولّى شُعْبة بن ظُهَيْر النَّهْشليّ على سَمَرْقند، فسار إليها فقَدِمَ الصُّغْدَ، وكان أهلها كفروا في ولاية عبد الرحمن بن نُعَيْم، ثم عادوا إلى الصلح[6].

---

(١) فتوح البلدان، ص ٤١٥.

(٢) الكامل، ج ٥، ص ٥٠ـ ٥٢.

(٣) عن سيرته؛ انظر:

Ency. de l'Isl (art Moslama) t3, p.447.

(٤) هو سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وإنما لقّب خُذَينة لأنه كان رجلاً ليّنًا متنعّمًا، فدخل عليه ملك أبغر وسعيد في ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، فلما خرج من عنده قالوا: كيف رأيت الأمير؟ قال: خُذَينة، فلقّب به، وخذينة هي الدهقانة ربّة البيت (الكامل، ج ٥، ص ٩٠).

(٥) فتوح البلدان، ص ٤١٦.

(٦) الكامل، ج ٥، ص ٩٠.

غير أن يزيد بن عبد الملك عاد فعزل مَسْلَمَة وولّى العراق وخراسان لعمر بن هُبَيْرة الفزاري في عام ١٠٢/ ٧٢٠، وفي العام التالي شكا وجهاء خراسان إلى ابن هبيرة سوء سيرة سعيد خذينة، فأمر بعزله واستعمل مكانه سعيد بن عمرو الحَرشيّ[(١)]، وكان خذينة غازيًا بباب سمرقند، فبلغه عزله فامتثل للأمر، وخلف بسمرقند ألف رجل[(٢)].

ولما قَدِمَ الحرشي خراسان، كان الناس بإزاء العدو، فخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال: «إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدّة ولكن بنصر الله وعزّة الإسلام». فلما سمع أهل الصُّغد بقدوم الحرشي خافوا على أنفسهم لأنهم كانوا قد أعانوا الترك أيام خُذينة، فصمّم عظماؤهم على الخروج من بلادهم. ولكن الحرشي لم يلبث أن عُزل في سنة ١٠٤/ ٧٢٢ واستعمل ابن هبيرة مكانه مسلم بن سعيد الكلابي[(٣)].

ولما تولّى هشام بن عبد الملك الخلافة (١٠٥ـ ١٢٥/ ٧٢٤ـ ٧٤٣) عزل عمر بن هبيرة عن عمل العراق واستعمل

---

(١) هو من بني الحَريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة (المصدر السابق، ج ٥، ص ١٠٣).
(٢) فتوح البلدان، ص ٤١٦؛ الكامل، ج ٥، ص ٩٧ وما بعدها، ١٠٣.
(٣) الكامل، ج ٥، ص ١٠٤، ١١٥، وقيل إن سبب عزل الحرشي يعود إلى استخفافه بابن هبيرة، فكان يذكره بأبي المثنى ولا يقول الأمير (المكان نفسه).

خالد بن عبد الله القَسْريّ[١] فأرسل أخاه أسدًا على خراسان سنة ١٠٦/ ٧٢٤[٢] فقدِمها ومسلم بن سعيد غازٍ بفرغانة[٣] فأتى الصُّغد وعلى سمرقند هانىء بن هانىء فخرج في الناس حتى يلقاه، ثم دخل سمرقند وعزل هانئًا واستعمل عليها الحسن بن أبي العمرطة الكندي[٤].

وفي سنة ١٠٩/ ٧٢٧؛ عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله عن خراسان، وسبب ذلك؛ أنه تعصّب حتى أفسد الناس، وضرب نصر بن سَيار ونفرًا معه بالسِّياط، منهم: عبد الرحمن بن نُعَيْم، وحلقهم وسيّرهم إلى أخيه خالد بالعراق، فبلغ فعله هشام بن عبد الملك، فعزله واستخلف على خراسان الحَكَم بن عَوَانة الكلبي، ثم عاد فعزله وولّى أشْرَس بن عبد الله السُّلَميّ، وكان رجلاً فاضلاً خيِّرًا، وكانوا يسمّونه الكامل لفضله، فلما قَدِمَ خراسان فرح الناس به[٥].

ولكن هشامًا لم يلبث أن عزل أشرس السلمي في سنة ١١١/ ٧٢٩ بسبب شكاوى رُفِعَت ضدّه، واستعمل الجُنَيْد بن

---

(١) عن سيرته؛ انظر:
Ency. de l'Isl, (art Khàlid B.Abd Allah al - Kasri), t2. p.929 - 930.

(٢) فتوح البلدان، ص ٤١٧.

(٣) فرغانة: مدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تُركستان بينها وبين سمرقند خمسون فرسخًا. (معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٧).

(٤) الكامل، ج ٥، ص ١٣١.

(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٢ـ ١٤٣.

عبد الرحمن المرّيّ[1] على خراسان، فقَدِمها ثم سار إلى ما وراء النهر وقاتل أهل بخارى والصُّغد، ثم زحف إليه خاقان الترك بالقرب من سمرقند فظفر الجُنيد وأسر من الترك ابن أخي خاقان، فبعث به إلى هشام ثم وزّع عمّاله في بلاد ما وراء النهر، واستعمل على خراج سمرقند شدّاد بن خُلَيد الباهليّ[2].

واستمر الجنيد في ولايته حتى سنة ١١٦/ ٧٣٤، فعزله هشام عن خراسان واستعمل عليها عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي[3] فَقَدِمَ البلاد وقد مات الجنيد[4]، فأخذ عاصم عمّاله وعذّبهم[5]، وفي أقلّ من سنة عُزل عاصم عن خراسان وتولاّها خالد بن عبد الله القَسْريّ، فاستخلف خالد عليها أخاه أسد بن عبد الله عام ١١٧/ ٧٣٥، فَقَدِمَ البلاد وقد أعلن عاصم الحرب ضدّه، فدارت بينهما معركة رهيبة انتهت بحبس عاصم وتغريمه مائة ألف درهم،

---

(١) هو من اليمانية، يقال إنه كان ذا فضل وسخاء، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ذَهَبَ الجُودُ والجُنَيدُ جميعًا
فعلى الجُودِ والجُنيدِ السَّلامُ

الأخبار الطوال، ص ٣٣٥.

(٢) فتوح البلدان، ص ٤١٨؛ الكامل، ج ٥، ص ١٥٦-١٥٧.

(٣) فتوح البلدان، ص ٤١٨.

(٤) كان موت الجُنَيد بمرو، وكان من الأجواد الممدوحين ولكنه غير محمود في حربه، (الكامل، ج ٥، ص ١٨٢).

(٥) المكان نفسه.

ثم توّج أسد انتصاراته بدخوله سمرقند سلمًا بعد نجاح مفاوضاته مع مؤيّدي عاصم في بلاد ما وراء النهر[1].

وبقي أسد في ولايته حتى وفاته سنة ١٢٠/٧٣٨، فاستُخلف جعفر بن حنظلة البَهْراني، فعمل أربعة أشهر ثم جاء عهد نصر بن سيّار، فوزّع عمّاله الأشدّاء[2] حتى عُمّرت خراسان عمارة لم تُعمّر قبلها، وأحسن الولاية والجباية مما ساعد على نشر الأمن والرخاء[3].

وكما وُفِّق نصر في سياسته بخراسان، كذلك كان لحُسْن تصرّفه نحو الموالي وأهالي بلاد ما وراء النهر أثره المجدي، بحيث إنه أصبح له أعوان كثيرون حتى أنه كان يخرج في غزواته ومعه أهل بخارى وسمرقند وكَشّ ونَسَف[4]، وبفضل انتصاراته على الترك في تلك البقاع، فقد تسارع أغلب ملوك بلاد ما وراء النهر إلى عقد الصلح معه، بخاصة الصُّغد التي كانت كثيرًا ما تثور ضدّ المسلمين[5].

---

(١) الكامل، ج ٥، ص ١٨٦ـ ١٨٩.
(٢) قيل: إنه لم يستعمل أربع سنين إلاّ مضريًا، (المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٧).
(٣) الكامل، ج ٥، ص ٢١٦، ٢٢٦ـ ٢٢٧.
(٤) كَشٌّ: قرية جبلية على ثلاثة فراسخ من جُرجان (معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٢٥)، ونَسَفُ: مدينة كبيرة آهلة بالسكان والعمارة تقع بين جيحون وسمرقند (المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٢٩).
(٥) الكامل، ج ٥، ص ٢٣٩ـ ٢٣٧؛ ٢٥٠.

غير أن تلك الجهود التي بذلها نصر سرعان ما انهارت برمّتها، لأن البلاد بدأت تتهيّأ لنقلة نوعية، تمثّلت في إنهاء عهد بني أميّة وقيام دولة بني العباس. فقبيل تولّي الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة (١٢٥/ ٧٤٣)[١] وتأكيده على ولاية نصر على خراسان[٢] كانت دعوة عبد الرحمن بن مسلم ويكنّى أبا مسلم الخراساني[٣]، قد بدأت بشكلها السرّي[٤] واستمرت كذلك طوال عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٥ـ ١٢٦/ ٧٤٣ـ ٧٤٤)[٥]، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦/ ٧٤٤)[٦]، والسنتين الأولتين من عهد مروان بن محمد الجعدي (١٢٧ـ ١٣٢/ ٧٤٤ـ ٧٥٠).

---

(١) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد الحافظ، ص ٣٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/١٩٨٦؛ صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٥٣.

(٢) الكامل، ج ٥، ص ٢٦٩.

(٣) عن سيرته انظر: الأخبار الطوال، ٣٣٧ـ ٣٣٨؛ ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٣٩ـ ١٤٠، بيروت: دار صادر، د.ت..

(٤) ذكر ابن خلدون أن أبا مسلم أرسل إلى خراسان في عام ١٢٤/ ٧٤٢ (كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٣، ص ٣١٧، بيروت: ١٩٥٧). وقال ابن الأثير: كان ذلك سنة ١٢٨/ ٧٤٥ـ ٦، (الكامل، ج ٥، ص ٣٤٧ـ ٣٤٨).

(٥) كانت ولايته خمسة أشهر واثني عشر يومًا، (ابن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥).

(٦) مكث في خلافته أربعة أشهر (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٥٤).

والجدير ذكره؛ أنه في تلك الأثناء كانت خراسان تعاني من حركة جُدَيْع بن علي الكِرمانيّ[1] التي قامت على أثر وقوع العصبية بين المضرية واليمانية، وكان سبب ذلك، أن الكرماني كان سيّد مَنْ بأرض خُراسلن من اليمانية، وكان نصر بن سيار مُتَعَصِّبًا على اليمانية مبغضًا لهم، فكان لا يستعين بأحد منهم، وعادى أيضًا ربيعة لميلها إلى اليمانية[2]، كما أنه حجب العطاء عنهم، وهدّدهم في خطبته التي قال فيها: «. . .كأني بكم وقد نبع من تحت أرجلكم شرٌّ لا يُطاق، وكأني بكم مُطرحين في الأسواق كالجُزُر المنحورة. . . فإياكم أن يختلف فيكم سيفان. . .»[3].

عندئذ تولّى الكرماني مجاهدة نصر، الذي ما إن شعر بالخطر المُحدِق به حتى أمر بالقبض على الكرماني وحبسه في القلعة القديمة، ولكنه تمكّن من الهرب[4]، فجمع أتباعه ونظّم صفوفه استعدادًا للقتال، غير أن الوسطاء سعوا في الصلح بين الرجلين، فآمن نصر الكرماني، وهدأت الفتنة التي سرعان ما عادت من

---

(١) هو شيخ خراسان وفارسها، وقد سُمّي الكرماني لأنه ولد بكرمان ـ بين فارس ومكران ـ وكان رجلاً عظيم الجثة، عريض ما بين المنكبين (الأخبار الطوال، ص ٣٥٢؛ الكامل، ج ٥، ص ٢٠٣، ٢٠٤؛ معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٥).

(٢) الأخبار الطوال، ص ٣٥١.

(٣) الكامل، ج ٥، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) الأخبار الطوال، ص ٣٥١.

جديد، وحتى لا يدفع أهالي خراسان ثمن تلك الحرب وتسفك دماء بريئة، قرّر الكرماني التوجّه إلى جُرْجان[1].

في ذلك الوقت عادت لتظهر من جديد قضية الحارث بن سُرَيْج الذي سبق ودعا في سنة ١١٦/ ٧٣٤ إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه والبيعة للرضا» فاجتمع لديه أربعة آلاف، فأتى بلخ[2] وعليها نصر بن سيار ومعه عشرة آلاف، فاقتتلا حتى انهزم أهل بلخ ودخل الحارث المدينة وخرج نصر منها[3].

ثم قصد الحارث مرو في ستّين ألفًا فيهم فرسان الأزد وتميم، فخرج والي خراسان عاصم بن عبد الله الهلالي في أهل مرو فقطع القناطر وعسكر لصدّ جيش الحارث، فدارت بينهم معركة شديدة انهزم على أثرها أصحاب الحارث وغرق أكثرهم في أنهار مرو، أما زعيمهم فقطع وادي مرو وضرب رواقًا عند منازل الرهبان، فكفّ عنه عاصم[4].

---

(١) الكامل، ج ٥، ص ٣٠٤ـ ٣٠٧. (وجُرجان مدينة عظيمة ومشهورة؛ تقع بين طبرستان وخراسان) معجم البلدان، ج ٢، ص ١٣٩ـ ١٤٢.

(٢) بلخ: أجلّ مُدُن خراسان وأكثرها خيرًا وأوسعها غلّة بينها وبين تِرْمذ اثنا عشر فرسخًا، ويقال لجيحون: نهر بلخ. عنها انظر: (معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦٨ـ ٥٦٩).

(٣) الكامل، ج ٥، ص ١٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨٤.

وبعد سنتين من تلك الأحداث؛ وجّه أسد بن عبد الله والي خراسان جُدَيعًا الكرماني إلى قلعة طخارستان العليا[1] التي فيها أهل الحارث وأصحابه، فحصرهم حتى فتحها، فأعمل القتل فيهم وسبى مَن بقي من العرب والموالي والذراري وباعهم في سوق بلخ[2].

بعد تلك النكبة التي حلّت بالحارث وأهله؛ بقي مقيمًا في منفاه ببلاد الترك حتى سنة ١٢٧/ ٧٤٤[3]، حينها صدر العفو عنه وأُمِرَ بالعودة إلى خراسان، ولم يكن ذلك حبًا بالحارث، وإنما خوفًا منه، وربما تكون مصلحة البلاد العليا اقتضت ذلك، والمهم أنه لمّا وقعت الفتنة بخراسان بين نصر والكرماني، والتي أشرنا إليها سابقًا، خاف نصر قدوم الحارث عليه في أصحابه الترك فيكون أشدّ عليه من الكرماني، لذا طمع أن يناصحه، فبعث الرُسُل إليه ليردّوه إلى خراسان بعد أن حملوا له أمانًا من الخليفة يزيد بن الوليد[4]، كما حملوا وعدًا له من نصر بردّ جميع ما أخذ

---

(١) طَخارستان: تقع في نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، والسفلى في نفس المكان إلاّ أنها أبعد من بلخ. (معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦).

(٢) الكامل، ج ٥، ص ١٩٧.

(٣) قال ابن الأثير: «كان مقامه في بلاد الترك اثني عشرة سنة»، الكامل، ج ٥، ص ٣٠٧.

(٤) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف بالناقص، كان ذا دين وورع إلاّ أنه دعا إلى القدر، ولم يُمتّع بالخلافة، فمات سنة ١٢٦/ ٧٤٤ وهو في العقد الرابع من العمر (ابن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤ـ ٣٥؛ دول الإسلام، ص ٧٦).

له، فأخذ الحارث الأمان وسار إلى خراسان فدخلها دخول الفاتحين(١).

ولما وَلِيَ يزيد بن عمر بن هبيرة العراق كتب إلى نصر بعهده على خراسان فبايع لمروان بن محمد، عندئذ خاف الحارث أن يطعن مروان بالأمان الذي أعطاه إيّاه يزيد بن الوليد، فدعا إلى العصيان أو يجعل الأمر شورى، فرفض نصر طلبه، وعرض عليه بالمقابل أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف؛ فرفض الحارث بدوره كل ذلك، كما امتنع من أن يحارب الكرماني، ثم نقب في سور مرو ودخل المدينة فقاتل فيها حتى انهزم(٢).

عندئذ؛ اتصل نصر بالكرماني ليتباحثا بالأمر، ولكن الكرماني لمس الغدر من نصر، فترك دار الإمارة وأعلن الحرب ضدّه، وكانت المعارك سِجالاً، انتهت بهزيمة أصحاب الكرماني الذين عادوا فسجّلوا انتصارات ساحقة على المضرية(٣).

على أثر تلك التطورات؛ تعاهد نصر والحارث على حرب الكرماني للاقتصاص من اليمانية، واتفق أن خرج نصر من مرو فاغتنم الكرماني الفرصة وغلب على المدينة كلها، ثم خطب أهلها فآمنهم وهدم دُور المضرية وأخذ أموالهم، فأنكر الحارث عليه

---

(١) الكامل، ج ٥، ص ٣٠٧ـ ٣٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٤٢ـ ٣٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٤٤.

ذلك وأتى مسجد عياض[1] ودعا الكرماني إلى أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرماني الأخذ برأيه، مما اضطر الحارث إلى مغادرة البلد. ولكنه عاد فدخل مرو من ثلمة أحدثها في سورها، فاشتد القتال بينهم وانتهى بقتل الحارث في سنة ١٢٨/٧٤٦[2].

وبعد إزاحة الحارث، خلصت مرو للكرماني، وأما نصر بن سيار فقد اضطر إلى الخروج منها، ثم عاد فنادى في جنوده، فعسكر في ناحية من الصحراء وحفر خندقًا، وكذلك خندق الكرماني الذي تمكّن من زرع الرعب في صفوف المقاتلين، وسجّل انتصارات عديدة قبل أن يسود الناس[3].

في هذه الأثناء جعل إبراهيم الإمام[4] لأبي مسلم الخراساني

---

(١) لم أتمكن من تحديد الشخص الذي نسب إليه هذا المسجد، كما ورد في الكامل اسم نهر عِياض (ج ٥، ص ٣٧٠).

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٤٥ـ ٣٤٦.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٣٥٤؛ الكامل، ج ٥، ص ٣٦٣ـ ٣٦٥. وكان أول مَن سوّد ـ أي أيّد الدعوة العباسية وارتدى السواد أو حمل لواء دولة المسوّدة وهي دولة بني العباس التي كان شعارها الرايات السود هو: أَسِيدُ بن عبد الله الخُزاعي بنسا، ومُقاتل بن حكم ومحقن بن غزوان. وكذلك سوّد أهل أبيورد، وأهل مرو وقراها (الكامل، ج ٥، ص ٣٦٤) ويذكر الدينوري أن قحطبة بن شبيب كان من بين الذين سوّدوا (ص ٣٣٩).

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، قتله مروان بن محمد عام ١٣٢/٧٤٩، وقد أنجب إبراهيم: عبد الوهاب ومحمدًا، فولي عبد الوهاب الشام، وولي محمد مكة والمدينة واليمن والحجاز، =

سلطة تامّة على الدعوة العباسية بخراسان، وأمر بقية الدعاة[1] بطاعته، وأوصاه باستِمالة اليمانية ومُعاداة المضرية[2]، فأرسل أبو مسلم الدعاة في نواحي خراسان فنجحوا في مهمتهم نجاحًا كبيرًا، بحيث جاءته أعداد لا تُحصَى من الموالي الفرس، حتى أنه انضمّ إليه في ليلة واحدة أهل ستّين قرية من نواحي مرو[3].

فلما اشتدّت شوكته سنة ١٢٩/ ٧٤٧، أظهر الدعوة، فنشر رايات سوداء، ولواءين كبيرين، أحدهما اسمه الظل، والآخر اسمه السحاب، بمعنى أن خلفاء العباسيين يظلّلون الأرض إلى آخر الدهر[4].

والجدير بالذكر؛ أن أبا مسلم بقي شهورًا قبل أن يدخل مرو عاصمة خراسان، وإنما أخذ يحتل الأماكن المحيطة بها؛ وساعده على ذلك انشغال نصر والكرماني بالقتال الدائر بينهما منذ عدّة

= عن سيرته انظر: (ابن قتيبة، المعارف، ص ٢١١ـ ٢١٢؛ الكامل، ج ٥، ص ٤٢٢ـ ٤٢٣).

(١) كان على رأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وهو أول النقباء الاثني عشر، منهم: لاهز بن قُريظ وقحطبة بن شبيب. عنهم انظر: (ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٢١٤). كما أدرج فاروق عمر أسماء النقباء في مؤلّفه، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٥٩، ط ١، بيروت: دار الإرشاد، ١٣٨٩/ ١٩٧٠. فذكر بدلاً من لاهز بن قُريظ اسم لاحظ بن قريظة.

(٢) الكامل، ج ٥، ص ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٥٨.

(٤) مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق (de Goeje)، ج ٣، ص ١٨٦، ط .بريل، ١٨٧١.

شهور[1]، وكان الخراساني يذكّي العداء بين نصر والكرماني، ويُكاتب الاثنين، كما أنه نزل في خندق ثالث بينهما، ولما لم يجد نصر فائدة مع الكرماني وجّه إليه ابن الحارث بن سريج في ثلاثمائة فارس فتمكّنوا من طعنه، ثم قتله نصر وصلبه سنة ١٢٩/٧٤٧[2].

بعد قتل الكرماني؛ صمّم أولاده على الأخذ بثأر أبيهم من المضرية المتمثّلة بنصر بن سيار، فلما وجدوا أنفسهم أضعف من أن يقوموا وحدهم بهذه المهمة، انضموا إلى أبي مسلم، وتعاهدوا جميعهم على قتال نصر بن سيار، فحاربوه حتى أخرجوه من دار الإمارة، ودخل أبو مسلم مرو في سنة ٧٤٨/١٣٠، وأتاه علي بن الكرماني فسلّم إليه الإمارة، وبايعه واضعًا نفسه بتصرّفه[3].

في هذا الوقت، كان نصر يفرّ أمام أبي مسلم، ويطلب المَدَد من الخليفة مروان بن محمد، أو من يزيد بن عمر بن هبيرة عامل العراق، ولكن الخليفة الأموي وعمّاله كانوا مشغولين عنه في النزاع المحتدم في أعمالهم بين اليمانية والمضرية، فهم أضعف من أن يقدّموا له أدنى مساعدة[4]. لذا أخذت مدن خراسان الكبرى

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٣٥٥؛ قال الدينوري؛ مكثت الحرب بينهما عشرين شهرًا. (المكان نفسه).

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٢؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤١؛ الكامل، ج ٥، ص ٣٦٣ـ ٣٦٥.

(٣) الكامل، ص ٣٦٥.

(٤) الأخبار الطوال، ص ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠. ويذكر اليعقوبي أن مروانًا توعّد ابن هبيرة وحثّه على مدّ نصر بالرجال فامتثل للأمر ووجّه جيشًا=

تتساقط الواحدة بعد الأخرى، مثل: هراة ونسا وأبيورد وطوس[1] ونيسابور وسرخس وبلخ وكش وغيرها[2]. وما لبث نصر نفسه أن توفي بجوار الريّ في سنة ١٣١/٧٤٨؛ فغلب أبو مسلم على خراسان كلها[3].

بعد ذلك؛ جاء دور العراق، فزحف عليه الداعية قَحطبة بن شبيب، فحاول ابن هبيرة صدّه في فارس، ولكنه هزم أمامه، وبعدها صعد قحطبة إلى الكوفة مباشرة، ولكنه غرق في أثناء حربه لابن هبيرة؛ فحمل الراية من بعده ابنه الحسن الذي تمكّن من دخول الكوفة سنة ١٣٢/٧٤٩، فاضطر ابن هبيرة أن يهرب أمام الجيش العباسي[4] الذي تمكّن وبسرعة غير متوقعة من السيطرة على معظم نواحي العراق.

وفي تقديري؛ أن الفُضَيل بن عياض كان قد ترك حياة التشرّد والسطو وانضم إلى الثوّار الذين أيّدوا الدعوة العباسية، ودليلنا على ذلك؛ أن بلدته أبيورد قد سُوّدت مع مَن سُوّد من مدن

= عظيمًا وعقد رايته لعامر بن ضبارة المري (تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤١).

(١) تقع بالقرب من نيسابور، بها قبر هارون الرشيد (ت ١٩٣/٨٠٩) وقبر الإمام علي بن موسى الرضا (ت ٢٠٣/٨١٩). (معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٥ وما بعدها.

(٢) الأخبار الطوال، ص ٣٦١.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) الكامل، ج ٥، ص ٣٨١، ٣٨٧، ٣٩٥؛ قابل رواية اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٣-٣٤٥.

وقرى بلاد خراسان، وبشهادة الدنيوري فقد لبسوا الثياب السود كما سوّدوا أنصاف الخشب التي كانت معهم، وسمّوها «كافر كوباد»[1].

ولديّ احتمال آخر يختصّ بقضية انتقال الفُضَيل إلى الكوفة، فقد يكون دخلها مع مَن دخل من الجيش العباسي الذي قاده قحطبة بن شبيب من خراسان إلى العراق، فبعد أن دخل الفُضَيل المدينة وبَهَرَته حضارتها والحياة العلمية السائدة فيها، طوى صفحة الماضي، وقرّر الاستقرار في مدينة العلم، وبدأ بتحصيل معارفه.

وبعد أن أمضى الفُضَيل، حقبة مديدة من حياته في الكوفة، عايش خلالها كبار شيوخ الحديث واختلط بكبار الفقهاء والزهّاد؛ قرّر ترك المدينة والتوجّه إلى مكة ليجاور بيت الله الحرام.

غير أن هذا التقديم لا يعني أنني سوف أتناول الأحداث السياسية في الكوفة خلال إقامة الفُضَيل فيها، ولكن يكفي أن أُحيل القارىء الكريم إلى الفصل الأول من كتابنا «داود بن نُصَير الطائي»[2]، وكذلك هو الحال بالنسبة لأحداث مكة التي وردت تفاصيلها في كتاب «سفيان بن عُيينة الهلالي محدّث الحرم المكّي»[3].

(١) الأخبار الطوال، ص ٣٦١؛ «والكافركوباد» تعني مضرب الكافر.
(٢) ص (٢٥ـ ٣٨)، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤/ ١٩٩٤؛ للمزيد من المعلومات عن التكوين الاجتماعي والسياسي لمدينة الكوفة؛ انظر: إبراهيم بيضون، اتجاهات المعارضة في الكوفة ط ١، بيروت: العهد الإنماء العربي، ١٩٨٦.
(٣) ص (٤٨ـ ٥٤)، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤/ ١٩٩٤.

وبكل أمانة؛ فقد اعتمدت أسلوب إحالة القارىء المهتمّ بتلك الأحداث إلى الكتابين المذكورين سابقاً؛ حتى لا أُطيل عليه في الشرح من جهة، وبُعدًا عن الإعادة والتكرار من جهة أخرى، بخاصة وأن هذه الأحداث نقوم بعرضها في بحوث متكاملة في سلسلة علمية واحدة تحمل اسم «أعلام الفقهاء والمحدّثين».

وبعد هذا العرض؛ أجد من المناسب أن ندخل في طلب الموضوع ونبحث في الجوانب البارزة في شخصية الفضيل بن عياض، بما في ذلك مولده ونشأته العلمية، وبالتالي مكانته الفكرية ومجالسه العلمية، ثم نعرض لنظرته إلى علم الحديث وموقفه من العلماء، ثم فلسفته في العزلة وفراره من الناس. وكلها جوانب تساهم بشكل أو بآخر في إلقاء الضوء على شخصية الرجل، الذي شغل معاصريه والأجيال المتعاقبة لفترة زمنية تتطلب منّا الاهتمام بها ودراستها بموضوعية وتُؤَدة، آملين أن نَفِي الفُضَيل حقه ونُظهِر ما له وما عليه خلال مسيرته في الحياة.

الفصل الثاني
نشأة الفُضَيل بن عياض، واعتزاله حلقات العلم

١ـ مولد الفُضَيل ونشأته العلمية:

هو الفُضَيْلُ بن عِيَاض بن مسعود بن بشر، أبو علي التميمي[(١)]، ثم اليربوعي[(٢)] الخُراساني[(٣)]، إمام الحرم[(٤)]، وشيخ الإسلام[(٥)]، وهو من كبار التابعين وزهّادهم وعبّادهم[(٦)]، وأحد

---

(١) هو عربي من قبيلة «تميم».

(٢) أحد بني يربوع.

(٣) محمد بن الحسين السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شربيه، ص ٦، القاهرة: جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٣٧٢/ ١٩٥٣.

(٤) عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ١، ص ٣١٦، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق نزير حمدان، إشراف شعيب الأرناؤوط، ج ٨، ص ٤٢١، ط ٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/ ١٩٨٦؛ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج ٧، ص ٣٣٧، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

(٦) عبد القادر بن أبي الوفا القرشي، ذيل الجواهر المضيّة في طبقات=

الأولياء العاملين في زمانهم[1].

وُلِدَ الفُضَيل بن عِياض بخُراسان بكورة أبيورد[2] بحسب رواية ابن سعد[3]، وابن قتيبة[4]، ولدينا رواية أخرى ذكرها السلمي[5] بسنده عن إبراهيم بن شَمَّاس يقول فيها إنه سمع الفُضَيل بن عِياض يقول: «ولدت بسَمَرْقَنْد[6]، ونشأتُ

= الحنفية، ج ٢، ص ٥٤٥، ط ١، حيدرآباد: الدكن، المطبعة النظامية، ١٣٢٢.

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٠، ص ١٩٨، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠١/ ١٩٨١.

(٢) أبيورد: مدينة بخراسان، بين سَرَخْس ونَسَا، فُتحت على يد عبد الله بن عامر بن كُوريز سنة ٣١/ ٦٥٢. (معجم البلدان، ج ١، ص ١١٠).

(٣) محمد بن منيع بن سعد، كتاب الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٥٠٠، بيروت: دار صادر (د.ت.).

(٤) كتاب المعارف، ص ٢٨٥، ابن أبي حاتم الرازي، كتاب الجرح والتعديل، ج ٧، ص ٧٣، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.). صورة بالأوفست عن ط. دائرة المعارف العثمانية.

(٥) طبقات السلمي، ص ٧ ـ ٨. انفرد السلمي بالقول: «إن الفُضَيل خراساني، من ناحية «مرو» ـ أشهر مدن خُراسان ـ، من قرية يقال لها «فُنْدين» ـ من قرى مرو ـ» (ص ٦)، وأيّده فيما بعد؛ عبد الوهاب الشعراني في الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٥، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩هـ. وعن فندين؛ انظر: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٥.

(٦) سَمَرْقَنْد: أعظم مدينة بما وراء النهر، وهي قصبة الصُغْد (معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٩). ويذكر ابن الأثير أن الفُضَيل ولد بسمرقند (الكامل، ج ٦، ص ١٨٩).

بأبيورد...». ويؤكد أبو عبيدة بن الفُضَيل هذه الرواية فيقول: «أبي فُضَيل... وُلِدَ بسمرقند، ونشأ بأبيورد، والأصل من الكوفة»[1].

والواضح؛ أن الفُضَيل وُلِدَ في العقد الأول من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وعلى التقريب في حدود سنة ١٠٧/ ٧٢٥[2] وترعرع خارج بلاد العراق[3]، غير أنه عاد إلى موطنه الأساسي وهو في طور الشباب، فقال ابن سعد: «قَدِمَ الكوفة وهو

---

(١) طبقات السلمي، ص ٨. ولدينا العديد من المصادر التي تذكر أن مولد الفُضَيل بسمرقند، مثال: ابن حبّان؛ كتاب مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٩؛ محيي الدين النووي؛ تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق وستنفلد، ص ٥٠٣، غوتينغن: ١٨٤٢ـ١٨٤٧؛ الذهبي، أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٢٢٢؛ تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦، بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت.).

(٢) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا سنة ولادة الفُضَيل بن عِياض بالتحديد، وإنما اكتفت بالقول إنه توفي سنة ١٨٧ / ٨٠٣ وقد نيّف على الثمانين (تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦) وقال صاحب الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية: «مات عن نحو ثمانين سنة» (ج ١، ص ١٥٠، القاهرة، مط. الأنوار ١٣٥٧/١٩٧٨). وقال الفُضَيل عن نفسه: «بلغتُ الثمانين أو جزتها...» (أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٢). وقال الذهبي في أعلامه: «هو من أقران سفيان بن عُيينة في المولد...» (المكان نفسه)، والثابت لدينا أن ابن عُيينة ولد سنة ١٠٧/ ٧٢٥، (انظر كتابنا: الإمام سفيان بن عُيينة الهلالي محدّث الحرم المكّي، ص ٥٩).

(٣) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٩.

كبير»[1]، وقال الذهبي: «قَدِمَ الكوفة شابًا»[2]. والمهم في ذلك؛ أنه منذ تلك الفترة بدأ الفُضَيل مسيرته العلمية وانكبّ على تحصيله الفكري.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي: ألم يكن الفُضَيل قد تلقّى مبادىء العلم وهو مقيم في بلاد خُراسان؛ وإذا جاء الجواب بالنفي، وهو الأرجح، نعود لنتساءل، كيف أمضى الفضيل تلك الفترة المديدة من حياته؟ وما هي الأعمال التي كان يمارسها أثناء ذلك؟.

إن هذه التساؤلات وغيرها؛ تحثّنا للبحث عن بداية أمر الفُضَيل بغية الكشف عن الحالة التي كان عليها قُبَيل قدومه الكوفة مدينة العلم والعلماء.

فبالعودة إلى المصادر تبيّن لنا؛ أن الفُضَيل لم يكن مستهترًا بالأمور العلمية فحسب، وإنما كان إنسانًا ضالاً رافضًا الأخذ بالقضايا الدينية والخلوقية، وبالتالي فقد تمرّد على الواقع الذي يعيشه؛ فانضمّ إلى جماعة الشطّار والعيّارين[3]، وامتهن عمل

(١) طبقات ابن سعد، ج ٥، ص ٥٠٠؛ المعارف، ص ٢٨٥؛ البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٨.

(٢) العِبَر في خبر مَن عَبَر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ج ١، ص ٢٩٨، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) عن الشطّار والعيّارين انظر: محمد رجب النجار، حكايات الشطّار والعيارين في التراث العربي، مجلة عالم المعرفة عدد ٤٥، الكويت: المجلس الوطني، ١٩٨١.

السلب والنهب وقطع الطرق، وزرع الرعب في قلوب الناس الآمنين، وبخاصّة التجّار المتنقلين في أرجاء خراسان.

رُوِيَ؛ أن الفُضَيل كان في أول أمره شاطرًا[1] يقطعُ الطريق بين أبِيَورْد وسَرْخَس[2]، وكان سببُ توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: **﴿أَلَمْ يأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ لِذِكرِ اللَّهِ﴾**[3]،فقال: «بلى يا رب، قد آن». فرجع، فآواه الليلُ إلى خَرِبة، فإذا فيها رُفْقَة، فقال بعضُهم: «نرتحل». وقال بعضهم: «حتى نُصبِح فإن فُضَيلاً على الطريق يقطعُ علينا»[4]، قال: «ففكّرت، قلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني هٰهنا، ما أرى الله ساقني

---

(١) الشاطر: هو الذي أعيا أهله ومُؤَدِّبَه خُبثًا، وقول الناس فلان شاطرٌ معناه أنه أخذ في نحو غير الاستواء. محمد بن منظور، لسان العرب، (مادة شطر). بيروت: دار صادر، دار بيروت، (د.ت.).

(٢) سَرْخَس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، وهي بين نيسابور ومَرْو في وسط الطريق، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٣٥.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٤) عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوّف، ص ٨، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.؛ شمس الدين أحمد بن خلكان؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج ٤، ص ٤٧، بيروت: دار الثقافة، (د.ت.)؛ البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٣؛ عمر بن علي بن الملقن؛ طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شربيه، ص ٢٦٦-٢٦٧، بيروت: دار المعرفة، (د.ت.).

إليهم إلاّ لأرتدع. اللّهمّ إني قد تُبتُ إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام»[1].

وقيل: إنه لمّا سمع الفُضَيل حوار القوم، فارعِد، فقال لهم: «يا قوم! أنا الفُضَيل، جُوزوا، واللّهِ لاجتهدنّ أن لا أعصي الله أبدًا!»، فرجع عمّا كان عليه[2].

ورُوِيَ من طريق آخر، أنه أضافهم تلك الليلة، فقال: «أنتم آمنون من الفُضَيل وخرج يرتاد لهم علفًا، فكان هذا مبتدأ توبته»[3].

وتذكر المصادر؛ أنه بعد هذه الحادثة التي هزّت كيان الفُضَيل، ارتحل على أثرها إلى الكوفة، ملبّيًا نداء ضميره ووجدانه، وتاركًا خلفه حياة التشرّد وانتهاك الحُرُمات. وإذا كان ما حدث له في خراسان قد غيّر مجرى حياته، فإن ما صادفه في الكوفة كان له الفضل في وضعه على الطريق الصحيح.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٢٩٤-٢٩٥، حيدرآباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٦هـ.

(٢) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٦، ص ١٤١-١٤٢؛ بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.)؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨.

(٣) عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، كتاب التوّابين، بعناية عبد القادر الأرناؤوط، ص ٢٠٨، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧. وقد علّق شمس الدين الذهبي على ذلك بقوله: «فالشرك أعظم من قطع الطريق، وقد تاب من الشرك خلقٌ صاروا أفضل الأمة...»، أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨.

حدّث الفُضَيل عن تجربته في الكوفة فقال: «مكثت في جامع الكوفة ثلاثًا لم أطعم طعامًا، فهزّني الجوع في اليوم الرابع، فدخل المسجد رجل مجنون بيده حجر كبير، وفي عنقه غلّ ثقيل، والصبيان من خلفه فجعل يجول في المسجد حتى جاءني، فجزعت منه وقلت: إلهي أجَعتَني وسلّطت عليّ مَن يقتلني»[1] فالتفت إليّ وقال:

مَحَلُّ بيان الصبر منك عزيز
فيا ليت شعري! هل لصبرك من أجْر

فقلت: «لولا الرجاء لم أصبر». فقال لي: «وأين مسكن الرجاء منك؟». فقلت: «موضع مستقر هموم العارفين». فقال: «والله أحسنت!. إنما هو قلبٌ الهمومُ عمرانُه، والأحزان أوطانُه؛ عرفته فاستأنست به، وأحببته فارتحلت إليه». فسمعت من كلامه، ما قطعني عن جوابه. ثم وعظني وولّى، وهو يقول:

أحسنت ظنَّك بالأيام إذ حسُنتْ
ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي، فاغتررتَ بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ[2]

بعد ذلك؛ أقبل الفُضَيل على نهل العلم من أئمة الكوفة بشكل لم يسبق له مثيل، فهو مصمّم هذه المرة، على أن يعوّض

---

(١) الكواكب الدرّيّة، ج ١، ص ١٤٨.
(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٢٦٩.

كل ما فاته من كنوز العلم، كما ينشد معرفة ما يجهله من أمور دينه، لذا انكبّ للأخذ من الركنين الأساسيين للشريعة الإسلامية هما: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف[1].

ومما ساعد الفُضَيل على تخطّي الكثير من العقبات خلال مسيرته العلمية، إيمانه القوي، وتصميمه الراسخ على فتح صفحة جديدة بينه وبين ربّه، وبين أبناء مجتمعه الذين كانوا يهابونه ويرتعدون عند سماع ذكره. يضاف إلى ذلك؛ فطنته التي اكتسبها من مغالبته للحياة، وقدرته على الحفظ والإتقان واستمساك الذاكرة، وعمله الجادّ على استذكار ما يسمعه ويتعلمه من شيوخه وأقرانه.

على كل حال؛ إن متابعة الفُضَيل لسماع الأحاديث وتنقّله في أنحاء الكوفة، وارتحاله في طلب العلم، ساعده للاجتماع بعدد لا بأس به من الأئمة وشيوخ الحديث والرواية عنهم، فذكرت المصادر أنه أسند عن أعلام التابعين وعلمائهم منهم:

منصور بن المعتمر، وسليمان بن مهران الأعمش، وعبيد الله بن عمر، وهشام بن حسان، ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري، ومحمد بن إسحٰق، وليث بن أبي سليم، وعطاء بن السائب، ومحمد بن عجلان، وحُصين بن عبد الرحمن، وسليمان التيمي، وحُمَيْدُ الطويل، وفطر بن خليفة، وصفوان بن سُليم، وجعفر بن محمد الصادق، وإسماعيل بن أبي خالد،

---

(١) عن أحاديث الفُضَيل؛ انظر الملحق رقم (٣).

وبَيان بن بِشْر، وزياد بن أبي زياد، وعبد العزيز بن رُفَيع، ومحمدَ بن أبي ليلى، ومُجالد بن سعيد، ومسلم الأعور، وأشعث بن سَوَّار، وعبد الله بن أبي أوفى، وأبّان بن أبي عياش. وخلق سواهم من الكوفيين والحجازيين[1].

وبعد أن روى الفُضَيل عن هؤلاء الأعلام ذهب سمْعُه في الناس، وبلغت شُهرته آفاق العالم الإسلامي، وعلى أثر ذلك؛ تواكب رجال الحديث لسماع أحاديثه الجِياد والرواية عنه، ومما عزّز مركزه؛ ورفع من قدره، أن كبار الأئمة وسادة العلماء قد حدّثوا عنه، من هؤلاء: سفيان بن سعيد الثّوري وهو من أجل شيوخه[2]، وسفيان بن عُيينة وهو من أقرانه، وعبد الله بن المبارك، ويحيىٰ بن سعيد القطّان، وعبد الرحمن بن مهدي، وحسين بن علي الجعفي، وعبد الرزّاق بن همّام، وإسحٰق بن منصور السلولي، والأصمعي، وابن وهب، وأسد بن موسى والشافعي، ومروان بن محمد، ومؤمل بن إسماعيل، وعبد الله بن وهب المصري، وأحمد بن يونس، ويحيىٰ بن يحيىٰ التميمي، ومُسَدَّد الأسدي، وقُتيبة بن سعيد، والحُميدي (عامر بن رديح)،

---

(١) عن شيوخ الفُضَيل بن عِياض؛ انظر: أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٨، ص ١١٤، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠/ ١٩٨٠؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٢، تهذيب النووي، ص ٥٠٣؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٨.

(٢) عن سيرة الثّوري؛ انظر كتابنا: الإمام سفيان بن سعيد الثّوري، سيّد الحفّاظ، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢/ ١٩٩٢.

وبشر الحافي، والسري السَّقطي، وثابت بن محمد العابد، وأحمد بن المقدام، وعبيد الله القواريري، ومحمد بن زُنْبور المكّي، ومحمد بن يحيىٰ العدني، وعبد الصمد بن يزيد مَردويه، وعبدة بن عبد الرحيم المروَزي، ومحمد بن أبي السري العَسْقلاني، ومحمد بن قدامة المصِّيصي، ويحيىٰ بن أيوب المقابري، ومحمد بن سليمان لُوَين، وخلق كثير[1]، آخرُهم موتًا الحسين بن داود البَلْخي[2] وذكر القرشي أنه «روى له الشيخان البخاري ومسلم وأصحاب السُّنن»[3].

وفوق ذلك؛ إننا لم نقع في المصادر على مَن جرح الفُضَيل أو نال من أهميته في علم الحديث؛ سوى ما رواه أحمد بن أبي خيثمة فقال: سمعت قُطْبة بن العلاء[4] يقول: «تركتُ حديثَ فُضَيل بن عِياض؛ لأنه روى أحاديثَ أزرى فيها على عثمان بن عفّان»[5].

---

(١) عنهم انظر: حلية الأولياء، ج ٨، ص ١١٤؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٢ـ ٤٢٣؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٤.

(٢) توفي الحسين بن داود سنة ٢٨٢/ ٨٩٥؛ عن سيرته؛ انظر: تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٤٤ـ ٤٥.

(٣) ابن أبي الوفا القرشي، الجواهر المضية، ج ١، ص ٤٠٩.

(٤) هو قطبة بن المنهال الغنوي الكوفي أبو سفيان روى عن الثّوري، وقد أدخله البخاري في كتاب الضعفاء وقيل يُكتَب حديثه ولا يُحتَجّ به. (الجرح والتعديل، ج ٧، ص ١٤١ـ ١٤٢).

(٥) شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، ج ٣، ص ٣٦١، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

وقد شمّر المؤرّخ شمس الدين الذهبي للذبّ عن الفُضَيل؛ فردّ على موقف قطبة، بقوله: «لا يُقبَل قول قطبة، ومَن هو قطبة حتى يُسمع قوله واجتهاده، فالفُضَيل روى ما سمع ولم يقصد غضًا ولا إزراءً على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه[1]، ففعل ما يسوغ، أفبمثل هذا يقول: تركت حديثه فهو كما قيل: رمتني بدائها وانسلت. وقطبة فقد قال البخاري: فيه نظر، وضعّفه النسائي وغيره، وأما الفُضَيل فإتقانه وثقته لا حاجة بنا لذكر أقوال مَن أثنى عليه فإنه رأس في العلم والعمل»[2].

وقال الذهبي في موضع آخر: «فمَن قطبة! وما قطبة حتى يجرح، وهو هالك...»[3] وزاد ابن حجر العسقلاني، فقال: «...ولم يلتفت أحد إلى قطبة في هذا»[4].

نخلص إلى القول: إن شهادة أئمة الحديث أمثال: البخاري والنسائي، ومواقف المؤرّخين الأعلام كالذهبي وابن حجر تُبرىء الفُضَيل بن عِياض من التُّهَم المنسوبة إليه، وبالتالي تؤكد على

---

(١) روى عبد الصمد بن يزيد عن فُضَيل بن عِياض أنه ذكر عنده الصحابة فقال: «اتبعوا كفيتم أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب» تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦.

(٢) شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧.

(٣) ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٣٦١.

(٤) تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٢٩٦.

أهميته وقبول حديثه عند جهابذة علم الحديث، وأئمة الجرح والتعديل[1] الذين لم يُدرِجوا اسمه بين المتروكين أو المدلسين[2].

٢ـ مكانته الفكرية ومجالسه العلمية:

أجمعت المصادر على الإشادة بالفُضَيل وبعلمه وعمله، وفضله وسيادته، فهو أحد العلماء الأعلام العاملين من أجل رفع راية الحديث الشريف[3]، وهو من كبار السادات علمًا وعملاً[4]، وبفضل جهوده ومناقبه ترقّت به الأحوال في علم الرواية حتى أصبح كبير الشأن[5]، فقيل: «إنه كان من أعاظم أئمة المحدّثين»[6].

ولا ريب؛ أن الفُضَيل كان يستحق أن يحمل لقب الإمام، بدليل أن المؤرّخين وعلماء المسلمين قد أثنوا عليه، وأجمعوا على

---

(١) عن الجرح والتعديل؛ انظر كتابنا: الإمام شُعبة بن الحجاج الأزدي سيّد المحدّثين ص ١١٨ وما بعدها، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣/١٩٩٣.

(٢) جلال الدين السيوطي، كتاب أسماء المدلسين، تحقيق محمود نصّار، بيروت: دار الجيل، د.ت..

(٣) البداية والنهاية، ج ١٠، ١٩٨.

(٤) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٧؛ صفي الدين الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ص ٢٣٤، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢؛ شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٦.

(٥) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٥.

(٦) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩؛ الكواكب الدرّيّة، ج ١، ص ١٥٠.

إمامته، فقال الذهبي: «هو الإمام القدوة»[(١)] وقال ابن كثير: «...كان من أئمة الرواية»[(٢)]، وقال ابن حجر العسقلاني: «هو أحد أئمة الهدى والسُّنة»[(٣)]، وقال آخرون: «هو الإمام الربّاني»[(٤)].

إلى جانب ذلك؛ حمل الفُضَيل لقب «شيخ الحرم»[(٥)]، و«شيخ الحجاز»[(٦)]، بل هو شيخ الإسلام قاطبة[(٧)].

فهذه الشواهد وغيرها؛ تثبت أن الفُضَيل كان متمكّنًا من مادته، ومجليًا في اختصاصه، لذا تسابق رجال الحديث لسماعه والرواية عنه، وهذه الأمور تدعونا لاستعراض قدراته العلمية وبالتالي موقفه من علم الحديث.

نشير هنا إلى أن القدرات العلمية للأئمة الفقهاء والمحدّثين كانت تظهر بوضوح من خلال مجالسهم وحلقاتهم، التي كانوا يحيونها لأبناء مجتمعهم، الذين كانوا يتشوّقون لسماع الحديث وروايته، وبالعودة إلى المصادر تبيّن لنا؛ أنه كان للفُضَيل

---

(١) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٥.
(٢) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.
(٣) لسان الميزان، ج ٧، ص ٣٣٧.
(٤) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٥؛ الجواهر المضيّة، ج ١، ص ٤٠٩؛ الكواكب الدرّيّة، ج ١، ص ١٤٨.
(٥) لسان الميزان، ج ٧، ص ٣٣٧.
(٦) الذهبي، دول الإسلام، ص ١٠٦.
(٧) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢١؛ لسان الميزان، ج ٧، ص ٣٣٧.

مجالس عامرة برجال الحديث، غير أن المعلومات المتوفرة لا تزيد عن لمحات خاطفة تُشير إلى تلك الحلقات، وهي لا تخلو من عرض مواقف التأييد للفُضَيل، والتأكيد على قدراته العلمية، والثناء عليه وتزكيته وتوثيقه.

والإشارة الوحيدة التي تتحدّث عن عدد أحاديثه؛ فقد جاءت مبهمة لا تحديد فيها ولا تفاصيل، فقال ابن سعد: «كان الفُضَيل كثير الحديث»[(١)]. وأما التصريحات التي تفيد عن أهميته وتثبيته؛ فهي وافية إلى حدٍّ ما، وأول ما يطالعنا بهذا الصدد رأي صاحبه إسحٰق بن إبراهيم الطبري، فقال: «كان صحيح الحديث، صدوق اللسان»[(٢)]، وقال قرينه الإمام سفيان بن عُيينة: «فُضَيل ثقة»[(٣)]. وكذلك وثّقه العجلي[(٤)] والنسائي[(٥)]، والدارقطني[(٦)].

وقال الإمام النووي: «...أجمعوا على توثيقه والاحتجاج به»[(٧)]، وقال شمس الدين الذهبي: «هو أحد الأثبات مُجمَع على

---

(١) الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٥٠٠؛ جمع أبو نعيم في «الحلية» جانبًا من أحاديثه. (ج ٨، ص ١١٤ـ ١٣٩).
(٢) تهذيب النووي، ص ٥٠٦؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٨.
(٣) الجرح والتعديل، ج ٧، ص ٧٣؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.
(٤) أحمد بن عبد الله العجلي، تاريخ الثقات، بعناية عبد المعطي قلعجي، ص ٣٨٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥/ ١٩٨٤.
(٥) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦؛ الخزرجي، ص ٢٦٤.
(٦) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٤؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.
(٧) تهذيب النووي، ص ٥٠٣ـ ٥٠٤.

ثقته وجلالته»[١]. وأخيرًا قال ابن كثير: «كان سيّدًا جليلاً ثقة...»[٢]، ولما حصل جدال حول توثيقه عاد الذهبي ليحسم الأمر بقوله: «فُضَيل ثقة بلا نزاع سيد»[٣].

أما بشأن الألقاب الأخرى التي حَظِيَ بها الفُضَيل، فيأتي في مستهلّها رأي أبي حاتم الرازي، فقال: فُضَيل «صدوق»[٤]. وقال شريك القاضي: هو «حجة»[٥] وأيّده في ذلك محمد بن عمّار الأزدي[٦] الذي قال لأحد أصحابه: «ليت فُضَيلاً كان يُحدّثك بما يعرف»، فقيل له: «ترى حديثه حجّة؟»، قال: «سبحانَ اللَّهِ»[٧]. وكأن ابن عمّار أنكر الوقوف عنده والسؤال عنه.

ولكن ابن شاهين بعد أن أدرجه في عداد ثقاته يذكر أن عثمان بن أبي شيبة كان يقول: «كان ثقة صدوقًا، ليس بحجة»[٨]،

---

(١) ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٣٦١.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.

(٣) شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧.

(٤) الجرح والتعديل، ج ٧، ص ٧٣.

(٥) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.

(٦) هو أبو جعفر البغدادي، متّفق على توثيقه والاحتجاج به، كان أحد أهل الفضل المحقّقين بالعلم وحُسْن الحفظ، كثير الحديث توفي سنة ٢٤٢/ ٨٥٦. مترجم في: (تهذيب ابن حجر، ج ٩، ص ٢٦٥).

(٧) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٤.

(٨) عمر بن أحمد بن شاهين، تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ص ٢٦٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

وكما كانت هذه القضية موضوع جدل؛ كذلك هو الحال بالنسبة لحفظه وإتقانه، فقال عبد الرحمن بن مهدي: «فُضَيل بن عِياض رجل صالح ولم يكن بحافظ»[1]. وعلى الرغم من ذلك نجد الذهبي يذكره في «تذكرة الحفّاظ»، وجعله يتصدّر الطبقة السادسة التي ضمّت عبد الله بن المبارك وسفيان بن عُيينة ووكيع بن الجراح وغيرهم من كبار الأعلام[2].

والجدير ذكره؛ أن حلقات الفُضَيل لم تكن مقتصرة على الحديث الشريف فحسب، وإنما كانت تتخلّلها جلسات متخصّصة بالحِكَم البليغة التي كان لا يفقه بعض القوم أبعادها؛ مما يضطر الفُضَيل إلى شرح غوامضها؛ حينئذٍ كان يقوم بدور المعلّم والأستاذ المتبحّر في القضايا الخُلُوقية والاجتماعية، لهذا خلع عليه عبد الله بن المبارك وهو في أحد مجالسه لقب «معلّم الخير».

فيُروَى أن الفضيل قال يومًا وهو في مجلسه: «لو أن لي دعوة مستجابة ما صيّرتها إلاّ في الإمام - يعني الخليفة -»[3]، فقال له أصحابه: «ولِمَ ذلك يا أبا علي؟»، قال: «متى صيّرتها في نفسي لم تجزني، ومتى صيّرتها في الإمام فإنه يكون في ذلك صلاح العباد والبلاد». فقيل له: وكيف ذلك يا أبا علي، فسّر لنا ذلك؟

فقال: أما صلاح البلاد فإنه إذا أمِنَ الناس ظلم الإمام، عمّروا الخرابات، ونزلوا في الأرض لإصلاحها.

---

(١) الجرح والتعديل، ج ٧، ص ٧٣؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.
(٢) ج ١، ص ٢٤٥، ٢٦٢، ٢٧٤، ٣٠٦.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩١.

وأما صلاح العباد؛ فإن الحاكم ينظر إلى ذوي الجهل فيرى أنه قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلّم القرآن وغيره. فيجمعهم في دور خمسين خمسين، أو أقل أو أكثر، ويعلّمهم أمور دينهم، ويعرّفهم أن ذلك هو ما يُصلحهم. وينظر إلى أصحاب الثّراء ويأخذ من زكاتهم ويردّها على فقرائهم، فيكون في ذلك صلاح العباد(١).

وكان بمجلس الفُضَيل يومئذ الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك فسمع ذلك فما ملك أن قام، فقبّل جبهة الفُضَيل وقال له في اعتزاز: «يا معلّم الخير مَن يُحسِن هذا غيرك»(٢).

ومن مواقفه الرائدة، أنه في إحدى لقاءاته مع إخوانه قال لهم: «ليس من عبد إلاّ وفيه ثلاثة خصال، أما اثنتين يسترهما، وأما الثالثة فلا يقوى، قيل: كيف ذاك يا أبا علي؟ قال: يظهر الرجل حَسَن الخلق في الخيرات، وليس بحسن الخلق، ويظهر السخاء وليس بسخي، ولكن الثالثة عقل الرجل عند المحاورة، إن كان له عقل عرفته لا يقدر يتصنّع»(٣).

وحين سأله أصحابه؛ عن أكذب الناس، وأجهل الناس، وأعلمهم بالله عزّ وجلّ، قال: «أكذب الناس العائذ في ذنبه، وأجهلُ الناس المُدِلُّ بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه»(٤).

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩١ـ ٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١١٣ـ ١١٤.
(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.

وكان خلال مجالسه يذكر دائمًا الزهد والورع والعبادة، فسأله القوم يومًا ما الزُّهد يا أبا علي؟ قال: «القُنوع، وقيل: ما الورعُ؟ قال: اجتنابُ المحارم، قيل: ما العِبادة؟ قال: أداءُ الفرائض...»[١].

وسأله إبراهيم بن الأشعث عن التواضع، فقال: «إن تَخْضَع للحق وتنقاد له، وتقبل الحق من كل مَن تسمعه منه»[٢]، «ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجل الناس قبلته منه»[٣]. وسأله أيضًا: «ما الصبر على المصائب؟ فقال: إن لا تبثّ[٤]»[٥].

وخرج يومًا إلى أصحابه وهو يقول: «إنما سمّي الصديق لتصدقه، وإنما سمّي الرفيق لترفقه، ليس في السفر وحده، بل في السفر والحضر». فقالوا له: «يا أبا علي فسّر لنا هذا؟». قال: «أما الصديق فإذا رأيت منه أمرًا تكرهه فعِظه ولا تدعه يتهوّر، وأما الرفيق فإن كنت أعقل منه فارفقه بعقلك، وإن كنت أحلم منه فارفقه بحلمك، وإن كنت أعلم منه فارفقه بعلمك، وإن كنت أغنى منه فارفقه بمالك»[٦].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٢) طبقات السلمي، ص ١١.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩١.
(٤) أن لا تُظهِر الحزن. الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٠.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٩١.
(٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١١٢.

إلى جانب ذلك؛ كان يُعَلِّم أصحابه كيف يجب أن تكون إجاباتهم سديدة، حتى لا يضلوا وهم سادة في العلم والعمل، وقدوة للخاصّة والعامّة. فقال لأحدهم: «إن قيل لك أتحبّ الله، أو تخاف الله؟ فاسكت فإنك إن قلت: لا كفرت، وإن قلت: نعم وليس وصفك وصف المحبّين والخائفين فاحذر المقت»[1].

وسأله أحد إخوانه، إذا أتاني رجل يشكو إليّ أمره من سوء خلق الناس، فماذا أقول له؟ قال: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: يا أخي اعْفُ عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو ولكن أنتصر كما أمرني الله عزّ وجلّ، قل: فإن كنت تُحسِن تنتصر مثلاً بمثل وإلاّ فارجع إلى باب العفو فإنه باب أوسع، فإنه مَن عفا وأصلح فأجْره على الله، وصاحب العفو ينام الليل على فراشه، وصاحب الانتصار يقلّب الأمور»[2].

وكما كان للفُضَيل نظرة واقعية في مواجهة القضايا الحياتية كذلك كانت له نظرة خاصة ورأي صريح بالنسبة لعلم الحديث وما يخصّ رجاله.

٣ـ نظرته إلى علم الحديث وموقفه من العلماء:

أ ـ نظرته إلى علم الحديث:

الواقع؛ أنه كان للفُضَيل نظرة خاصّة بالنسبة لقضايا العلم، ولا سيما فيما يتعلق بأخذه وعطائه ومنعه وبذله، فهو يرى أن

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٢.

العلم يتطلب العبادة حتى تصقله النفس البشرية، وتجعله وقفاً لله وحده، لذا كان يتأفف من أولئك المتطفلين الذين يخوضون في علم الحديث، وبخاصّة الذين يفتون بين الناس قبل أن يبلغوا المستوى اللائق في ذلك العلم، فكان يقول لهم: «ويحكم كان الرجل من بني إسرائيل لا يفتي ولا يحدّث حتى يتعبّد سبعين سنة»[١].

كذلك كان يرى، أن العلم والعمل متلازمان متكاملان ولا مجال للفصل أو المفاضلة بينهما، مثله في ذلك مثل شيخه سفيان بن سعيد الثّوري[٢]، الذي قيل له: «طلبُ العلم أحبّ إليك أو العمل؟»، فقال: «إنما يُراد العلم للعمل، ولا تدع طلب العلم للعمل، ولا تدع العمل لطلب العلم»[٣]، وقال أيضًا: «يا أخي اطلب العلم لتعمل به، ولا تطلبه لتُباهي به العلماء، وتماري به السفهاء، وتأكل به الأغنياء، وتستخدم به الفقراء، فإن لك من عملك ما عملت به، وعليك ما ضيّعت منه...»[٤].

ويرى الفُضَيل بدوره، أن العلم يجب أن يُنشَر ويُعمَل به حتى لا يعتري حامله الندامة، فكان يقول: «وأيّ حسرة على امرىء أكبر من أن يؤته الله عزّ وجلّ علمًا فلم يعمل به، فسمعه منه غيره فعمل به، فيرى منفعته يوم القيامة»[٥].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١١٠.
(٢) تهذيب ابن حجر، جـ ٨، ص ٢٩٤.
(٣) الحلية، ج ٧، ص ١٢.
(٤) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠.
(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٩.

من جهة أخرى، كان يشجّع الناس على العمل بما يعلمون فقال: «مَن عمل بما علم استغنى عمّا لا يعلم، ومَن عمل بما علم وفّقه الله لما لا يعلم»[1]، وفي يقينه أن العمل يجب أن يترفّع عن الشهوات وعن المصالح الشخصية، وأن يكون من أجل الصالح العامّ، فقال: «لن يعمل عبد حتى يؤثِر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثِر شهوته على دينه»[2].

من هذا المنطلق؛ فعلى العاملين أن يتمتعوا باستقلالية تامّة، دون أن يتأثّروا بأحدٍ من أبناء البشر مهما عَلَت مكانته؛ حتى لا يُتَّهمون في دينهم وأخلاقهم، وبذلك يأتي حبّهم للعمل وقيامهم به نابعًا من ذاتهم الإنسانية التوّاقة للخير والحبّ والإخلاص لأبناء الأمة، وبهذا الصدد قال الفُضَيل: «ترك العمل من أجل الناس رياءٌ، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[3].

ويعوّل الفُضَيل على العمل الصالح؛ لأنه في نظره هو الدليل الأهم على استمرارية الحياة، أما إذا ما حُرِمَ المرء من هذه النعمة فموته أفضل له، لهذا قال: «مَن حُرِمَ العقل فليُصِب العمل، فإن حُرِمهما فالموت خير له»[4].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩.
(٣) الرسالة القشيرية، ص ٩، تهذيب النووي، ص ٥٠٤؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧؛ البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.
(٤) الكواكب الدرّية، ج ١، ص ١٤٩.

بعد ذلك؛ أخذ يقارن بين العاملين في زمانه والعاملين فيما مضى، فقال: «كانوا يراؤون بما يعملون، والآن يراؤون بما لا يعملون!»[1].

وعلى العموم؛ فإن الفُضَيل يدعو إلى العمل الخَيِّر الذي يرتضيه الله عزّ وجلّ لكي يشملنا برحمته ونفوز بمغفرته، فقال: «ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه، فأغلق دونك أبواب المغفرة وأنت تضحك، كيف ترى أن يكون حالك؟»[2] وختم الجدل بهذا الخصوص بقوله: «كان يقال: لا يزال العبد بخير ما إذا قال: قال لله، وإذا عمل، عمل لله»[3].

ب ـ موقفه من العلماء:

وكما كان للفُضَيل نظرته الخاصّة بالنسبة للعلم والعمل، كذلك كان له رأيه الصريح، بما يخصّ العلماء المعاصرين له، وقد أمدّتنا المصادر بموقفه الناقد لأهل العلم، الذين هم معقد آمال أبناء الأمة، فهم ورثة الأنبياء والبقية الصالحة التي تعمل وفق مبادىء النبي (ﷺ)، والصحابة والسلف الصالح.

---

(١) الكواكب الدرّية، ج ١، ص ١٤٨.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٠؛ عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفوة، بعناية إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، ج ٢، ص ١٦١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩٥.

من هذا المنطلق؛ وجد الفُضَيل أنه من الواجب الخُلُقي والديني لهؤلاء القوم، أن يكونوا على مستوى الآمال، فيحملون الرسالة بصدق ويؤدّون الأمانة بإخلاص، لهذا كان يدعوهم إلى الزهد في الدنيا، والترفّع عن المادة، وبذلك تنقاد لهم العامّة وتخضع لهم الجبابرة وعُلية القوم. وبهذا الخصوص قال:

«لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحّوا على دينهم، وأعزُّوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله؛ إذنْ لخضعتْ لهم رقابُ الجبابرة وانقاد لهم الناسُ فكانوا لهم تبعًا، ولكنهم ابتذلوا أنفسهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلّوا، ووجدوا لغامزٍ فيهم مغمزًا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، أَعْظِمْ بها مصيبةً»[1]، وقال أيضًا: من علامة زهد العلماء «أن يفرحوا إذا وُصِفوا بالجهل عند الأمراء ومَن داناهم»[2] ويجد الفُضَيل؛ أن العلماء معنيّون بإصلاح أنفسهم قبل أن يبادروا إلى إصلاح سائر الناس، لهذا كان يحذّرهم من مغبّة الانزلاق في متاهات المادة وحبّ الشهوات، وهم الجديرون بالترفّع عن كل ذلك، فقال: «العلم دواء الدين، والمال داء الدين، فإذا جرّ العالم المال إلى نفسه كيف يُصلِح غيره؟»[3].

---

(١) محمد بن الحسن بن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، ج ٢، ص ٩٥، ط ١، بيروت: دار الإنماء العربي، ١٩٨٤.
(٢) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦؛ قابل: الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ١١٢.

ويرى الفُضَيل؛ أن العالِم مسؤول أمام الله عزّ وجل، فمهمته كبيرة، وحسابه عسير، لأن كل امرىء يُحاسَب بقدر علومه ومعارفه، فالعالِم إذا أخطأ يكون خطأه عن علم ودراية، أما الجاهل فتزلّ به القدم عن جهل وسوء تدبير. لذا حذّر الفُضَيل العلماء من مغبّة التمادي في أخطائهم، ونبّههم من آفة هذه المخاطر بقوله: «يُغْفَر للجاهل سبعون ذنبًا ما لا يُغفَر للعالِم ذنب واحد»[1].

بعد ذلك؛ يُجري الفُضَيل مقارنة بين العلماء السابقين لعصره، والعلماء المعاصرين، فيقول: «بلغني أن العلماء فيما مضى كانوا إذا تعلّموا عَمِلوا، وإذا عَمِلوا شُغِلوا، وإذا شُغِلُوا فُقِدوا، وإذا فُقِدوا طُلِبوا، فإذا طُلِبوا هربوا»[2]. وقال أيضًا: «كان العلماء رَبيعَ الناس، إذ رآهم المريضُ لم يسرّه أن يكون صحيحًا، وإذا نظر إليهم الفقيرُ لم يَودَّ أن يكون غنيًا، وقد صاروا اليوم فتنة الناس»[3].

---

(١) أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص ١٢، (دون دار نشر، د.ت.)؛ الحلية، ج ٨، ص ١٠٠؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٠.
وقد استند الفُضَيل في قوله إلى حديث شريف رواه جعفر عن ثابت عن أنس عن النبي (ﷺ) قال: «يعفي عن الأمّيّين قبل أن يعفي عن العلماء»، الورع، ص ١٢.

(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٩ـ ٤٤٠.

(٣) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري، ج ٢، ص ٢٢٧، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٣٧٥/١٩٥٦.

وقال عن علماء عصره الذين انخرطوا في الأمور الدنيوية، وتخلّوا عن المزايا السامية التي كان يتحلّى بها الرسول الكريم (ﷺ): «كثير من العلماء زِيّه أشبه بزِيّ كسرى وقيصر، منه بزِيّ إمام المرسَلين، فإنه لم يضع لَبِنَة على لَبِنَة، ولكن رُفِع له علم فشمّر إليه»[1].

وبعد أن ازدادت خبرة الفُضَيل في الحياة، وعرف حقيقة العلماء من خلال معايشته لهم؛ عمد إلى تصنيفهم إلى علماء دنيا، وعلماء آخرة، ثم حذّر الناس من عالم الدنيا لأن فتنته أشدّ من فتنة هاروت وماروت. فقال: «إنما هما عالِمان: عالِم دنيا وعالِم آخرة، فعالِمُ الدنيا علمه منشور وعالِم الآخرة علمه مستور، فاتّبعوا عالِم الآخرة، واحذروا عالِم الدنيا، لا يصدّكم بسُكره»[2]، ثم تلا هذه الآية **﴿إن كثيرًا مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ليأكلُونَ أموالَ الناسِ بالباطل ويَصُدُّون عن سَبيلِ اللّهِ﴾**[3].

وأخيرًا رأى الفُضَيل أن الحكماء هم المُعَوّل عليهم في قيادة الأمة، لهذا عندما قيل له: «العلماء ورثة الأنبياء»[4]، قال:

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩؛ قابل: الحلية، ج ٨، ص ٩٢.

(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٢؛ قابل: أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤؛ طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ١٠؛ القاهرة: بولاق، ١٣٠١هـ، والترمذي، في السُّنن، كتاب العلم، باب ١٩، ط بولاق، ١٢٩٢هـ.

«الحكماء ورثة الأنبياء»[1]. ولما قيل له: «العلماء كثير»!، قال: «الحكماء قليل»[2].

ولعلّه بسبب تلك الحالة المتردّية التي وصل إليها العلماء؛ أخذ الفُضَيل يفرّ منهم ومن أصحاب الحديث، ومن ثم اختار العُزلة غير آبه بمُغريات الحياة وبالمراكز العلمية التي تبوّأها بين مُعاصِريه.

٤ـ فراره من أصحاب الحديث:

الواضح؛ أن الفُضَيل بعد أن بلغ مركز الشُّهرة؛ بدأ يفرّ من أصحاب الحديث، متشبّهًا بشيخه سفيان الثّوري، الذي كان يعدُّ الشُّهرة بلِيّة ابتُلِيَ بها، ويتمنى أن ينجو منها، ويقول: «كنت إذا رأيت الرجال يجتمعون إلى أحد غبطه، فلما ابتُليت بها ودِدت أني نجوت منها كفافًا لا عَليَّ ولا لي»[3]، وقال: «وددت أن يدي قُطعت ولم أطلب حديثًا»[4].

أما الفُضَيل بن عِياض فكان يقول: «لو رأيت رجلاً اجتمع الناسُ حوله لقلتُ: هذا مجنون، ومَن الذي اجتمع الناس حوله، لا يُحبّ أن يُجوِّد كلامه لهم؟»[5]. وقال أيضًا: «لو حلفتُ أني

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٢.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٣) الحلية، ج ٧، ص ٣٦ـ ٣٧.
(٤) أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٧٤.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٩٤.

مُرَاءٍ كان أحبّ إليّ من أن أحلف أني لستُ بمُراءٍ»[1]. وذلك لأنه شغل نفسه بالحديث، وخرج للمحدّثين وتزيّن لهم وتزيّنوا له.

وقد حدّد ابن أبي عمر العزلي الفترة التي ترك فيها الفُضَيل مجالسه فأشار إلى موضع في المسجد الحرام وقال: «كان الفُضَيل وابن عُيينة يجلسان، ثم ـ وأشار إلى ناحية ـ فلما قَدِمَ سفيان اعتزل الفُضَيل وقعد في بيته[2]، وقال لنا سفيان: قوموا بنا إلى أبي علي فجاء إلى الفُضَيل، قال: ألا ترجع إلى موضعك؟ فقال: ليس هذا زمان تلاقٍ»[3].

وقد توصّل الفُضَيل إلى هذه القناعة، في بُعْده عن الشُّهرة وتركه حلقة الحديث، بعد أن عايش أصحاب الحديث وخَبِرَ أنفسهم، وعرف عن كثب؛ أن الأجيال قد تغيّرت عن ذي قبل، فعبّر عن موقفه بقوله: «إن استطعت أن لا تكون محدّثًا ولا قارئًا، ولا متكلّمًا. إن كنت بليغًا، قالوا: ما أبلغه، وأحسَنَ حديثه، وأحسن صوته، فيُعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا، ولا حَسَن الصوت، قالوا: ليس يُحسِن يُحدِّث، وليس صوته بحَسَن،

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٢) بحسب تقديري أن الفُضَيل اعتزل حلقته وهو في العقد السادس من عمره، لأنه في سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩ـ ١٧٨٠م استقر ابن عُيينة نهائيًا في مكة، وترك الرحلة في طلب العلم. وبناءً عليه تكون عُزلة الفُضَيل قد دامت قرابة ربع قرن من الزمن. (انظر كتابنا سفيان بن عُيينة، ص ٦٨ـ ٦٩).
(٣) كتاب الورع، ص ٦.

أحزنك ذلك، وشقَّ عليك، فتكون مُرائِيًا، وإذا جلست، فتكلمت، فلم تُبَالِ مَنْ ذمّك، ومَنْ مدحك، فتكلَّمْ»[1].

ويرى الفُضَيل أيضًا؛ أن فتنة الحديث أشدّ من فتنة الذهب والفضة، لأنه يشغل الخَلق عن ذكر الله عزّ وجل، وعن التبحّر في معاني القرآن الكريم، وبالتالي عن ممارسة سائر العبادات المفروضة عليهم، وهذا الموقف ينسجم أيضًا، مع رأي سفيان الثّوري[2] الذي كان يقول: «ما أخاف على نفسي أن يُدخلني النار إلاّ الحديث، لأن فتنة الحديث أشدّ من فتنة الذهب والفضّة»[3].

أما الفُضَيل فقد عبّر عن رأيه حينما التقى مُحْرز بن عَون في مكة، فقال له: «يا مُحْرز، وأنت أيضًا مع أصحاب الحديث، ما فعل القرآن؟ والله لو نزل حرفٌ باليمن، لقد كان ينبغي أن نذهب حتى نسمعه، واللهِ لأن تكونَ راعي الحُمُرِ وأنت مقيم على ما يُحبُّ الله، خير لك مِن الطّواف وأنت مقيم على ما يكره الله»[4].

ولدينا رواية أخرى تبيّن أن الفُضَيل قد ندم على أخذه الحديث وفرّ منه ومن أصحابه فراره من الأسد الحطوم، وقد

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩١؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٣.

(٢) انظر سفيان الثّوري، ص ٧٢ـ ٧٣.

(٣) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، تحقيق ضياء العمري، ج ١، ص ٧٢٧، بغداد: مط. الإرشاد، ١٣٩٤/ ١٩٧٤؛ خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٨٠، باعتناء بيرندرانكة، فيسبادن: مرانزشتايز، ١٣٩٥/ ١٩٧٩.

(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.

تحدّث عن ذلك صاحبه إسحٰق بن إبراهيم الطبري فقال: «كان الفُضَيل شديد الهيبة للحديث إذا حدَّث، وكان يثقل عليه الحديث جدًا»[١]، وأضاف، وربما قال لي: «لو أنك طلبتَ مِنّي الدنانير كان أيسر عليَّ من أن تطلب منّي الحديث. فقلت: لو حدّثتني بأحاديث فؤاد ليست عندي، كان أحبَّ إليَّ من أن تَهَبَ لي عددها دنانير. قال: إنك مفتون، أما والله لو علمت بما سمعت، لكان لك في ذلك شُغل عمّا لم تسمع، سمعت سليمان بن مهران[٢] يقول: إذا كان بينَ يديك طعامٌ تأكله، فتأخذ اللُّقمة، فترمي بها خلفَ ظهرك متى تشبع؟»[٣].

ولعلّه بسبب حذر الفُضَيل وخوفه من عاقبة التحديث؛ كان يتمنى الموت على أن يلقى رجال الحديث، وقد أفصح عن ذلك حين قال: «وددت أنه طار في الناس أنّي مُتُّ حتى لا أُذكَر. إني لأسمعُ صوت أصحاب الحديث، فيأخذني البول فَرَقًا[٤] منهم»[٥].

والواضح؛ أنه على الرغم من فرار الفُضَيل من أصحاب الحديث وكراهيته اجتماعه بهم، فقد كانوا يثقلون عليه، ويلاحقونه

---

(١) تهذيب النووي، ص ٥٠٦؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦.

(٢) معروف بالأعشى، محدّث أهل الكوفة في زمانه، كان ثقة ثبتًا في الحديث توفي سنة ١٤٨/ ٧٦٥. (جلال الدين السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٥، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/ ١٩٨٣).

(٣) الحلية، ج ٨، ص ٨٦ـ ٨٧؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٨ قابل: الجواهر المضيّة، ج ١، ص ٤٠٩.

(٤) الفَرَق: الخوف، (مختار الصحاح، ص ٥٠٠).

(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦.

للأخذ عنه، لهذا كانت تحصل بينه وبينهم مواجهة كلامية؛ نتبيّن من خلالها مدى ضجره من هؤلاء القوم وثقل وطأتهم عليه.

حدّث الحُسَين بن زياد، وهو شاهد عَيَان، قال: «سمعتُ فُضَيلاً يقول لأصحاب الحديث: «لِمَ تُكرِهوني على أمرٍ تعلمون أني كاره له - يعني الرواية -؟ لو كنتُ عبدًا لكم، فكرهتكم كان نَوْلي أن تبيعوني، لو أعلمُ أني إذا دفعت ردائي هذا إليكم ذهبتُم عنّي، لفعلت»[1]. ثم قال لهم معبّرًا عن خوفه: «إني لأذكركم بالليل، فيقع عليَّ التقطير[2] »[3].

ومهما فعل الفُضَيل فلم ينجُ من أولئك المتطفلين الذين كانوا يتربّصون به الدوائر أينما حلّ وحيثما ارتحل، فهم خلفه حتى لو اختبأ منهم في المسجد الحرام.

قال أبو جعفر محمد بن عبد الله الحذّاء: «وقفنا للفُضَيل بن عِياض على باب المسجد الحرام، ونحن شُبّان علينا الصوف، فخرج علينا، فلما رآنا قال: وددت أني لم أركم ولم تروني، أتروني سَلِمت منكم أن أكون ترسًا لكم حيث رأيتكم وتراءيتم لي! لأن أحلف عشرًا إني مُرائي وإني مخادع أحبّ إليّ من أن أحلف واحدة أني لست كذلك»[4].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦-٤٣٧؛ قابل: الحلية، ج ٨، ص ٩٥.

(٢) سال منه البول قطرة قطرة (مختار الصحاح، ص ٥٤٢).

(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٧-٩٨.

ولو عدنا إلى تحليل هذه الظاهرة، وهذا الموقف السلبي من قِبَل الفُضَيل، نجد له أكثر من تفسير، فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقًا، يتبيّن لنا؛ أنه لم يكن مقتنعًا بقدراته الفكرية، ويرى نفسه أنه غير مؤهّل لعقد حلقات الحديث! ولعلّه أراد أن يتفرّغ للعبادة ليُصلِح ما تهدّم بينه وبين ربّه عزّ وجلّ، وربما لم يستطع أن يتخطّى أو ينسى ماضيه المؤلم الذي هزّ كيانه وحطّم شخصه، فوجد في الفرار من الناس وملازمة الوحدة ملاذه الوحيد. والرواية التالية تؤكد هذا الأمر. ذكر أصحاب الفُضَيل أنه كان يحدّث نفسه ويعاتبها فيقول: «واجتمعوا حولك يكتبون عنك، بخ فقد تفرّغت للحديث. ثم قال: هاه ـ وتنفس طويلاً ـ ويحك أنت تُحسِن تُحدّث، أو أنت أهل أن يُحمَل عنك، استحي يا أحمق بين الحمقان، لولا قلّة حيائك وسفاهة وجهك ما جلست تحدّث، وأنت أنت، أما تعرف نفسك؟ أما تذكر ما كنت: وكيف كنت؟ أما لو عرفوك ما جلسوا إليك، ولا كتبوا عنك، ولا سمعوا منك شيئًا أبدًا. . .»(١).

وهكذا ظلّ الفُضَيل يعيش في صراع داخلي مع نفسه المعذّبة التي تنشد الترفّع والتطهّر من آثام الماضي. ولما وجد أن عُزلته الأولى المتمثّلة في بُعده عن المحدّثين لم توصله إلى أمله المنشود، قرّر أن يدخل في عُزلته الكبرى ويترك الناس جميعًا من دون أن ينسى دوره في الأمر والنهي وخصوصًا لأصحاب

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٦.

الحديث؛ لأنه وجد نفسه معنيًّا بإصلاح حالهم، وتقويم اعوجاجهم حتى لا يصغروا في أعين الناس. فلما رأى قومًا منهم يَمرحُون ويضحكون، ناداهم قائلاً: «مهلاً يا وَرَثَة الأنبياء، مَهْلاً ثلاثًا، إنكم أئمة يُقتَدى بكم»[1].

مهما يكن؛ فالذي يعنينا هنا، هو نوع الحياة التي فرضها الفُضَيل على نفسه بعد أن قرّر ترك حلقته واعتزال الناس، وهذا الأمر يدعونا لاستعراض ذلك الجانب ممهِّدين له بنبذة عن فلسفته في العُزلة، وبالتالي معرفة وضعه النفسي وهو في تلك الحالة التي اختارها بملء إرادته.

٥ـ فلسفته في العزلة وصنيعه فيها:

أ ـ فلسفته:

الملاحظ من خلال الأقوال التي كان يجود بها الفُضَيل في كثيرٍ من المناسبات؛ أنه بعد أن بلغ المستوى اللائق في العلم والعمل بدأ يخطّط للعُزلة النهائية، وراح يفرّ من الناس ويدعو إخوانه إلى ذلك؛ متأثّرًا بمَن سبقه في هذا الطريق، ويأتي في طليعتهم أُستاذه داود بن نُصَير الطائي[2] الذي كان يقول:

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥. وذكر الخطيب البغدادي أنه قال لهم، بعد أن رأى فيهم بعض الخفّة: «هكذا تكونون يا ورثة الأنبياء!». كتاب شرف أصحاب الحديث، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، ص ٤٦، أنقرة: دار إحياء السُّنّة النبوية. د.ت..

(٢) عن سيرته؛ انظر كتابنا داود بن نصير الطائي الفقيه الزاهد.

«. . .وهل الأُنس اليوم إلاّ في الوحدة والانفراد؟ ما يتجمّل لك أو متجمّل له، ففي أيّ ذلك خير؟»[١]، وأضاف قائلاً: «أنت بين اثنين: صغير لا يوقّرك، وبين كبير يحصي عليك عيوبك»[٢]، وقال أيضًا: «تركنا الذنوب، وإنّا نستحي من كثيرٍ من مجالسة الناس»[٣].

وأما الفُضَيل بن عِياض؛ فكان ينشد في عُزلته الخلوة بربّه، والتفرّغ للعبادة والبكاء على خطيئته، بعد أن خَبِرَ الناس، وتيقن أنه لا فائدة منهم ومن مخالطتهم، فكان يقول: «طوبى لمَن استوحش من الناس، وأنس بربّه، وبكى على خطيئته»[٤]، وقال أيضًا: «مَن استوحش من الوحدة، واستأنس بالناس لم يَسلم من الرياء»[٥].

ويرى الفُضَيل؛ أن كثرة معارف المرء لا تدلّ على رجحان عقله واتّساع مداركه، وليس هي دليل عافية اجتماعية وانفتاح على الآخرين بقدر ما هي رقّة في العقل وخفّة في التفكير فقال: «من سخافة عقل الرجلِ كثرة معارفه»[٦]، وقال: «مَن عرف الناس استراح»[٧]، يعني أنهم لا يضرّون ولا ينفعون[٨].

(١) الحلية، ج ٧، ص ٣٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٤٤؛ الكواكب، ج ١، ص ١٠٤.
(٣) الحلية، ج ٧، ص ٣٥٩.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٤، وجاء في الكواكب: «طوبى لمَن استوحش بالخلق وأنس بالحق» (ج ١، ص ١٤٨).
(٥) الحلية؛ ج ٨، ص ١٠٩؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦.
(٦) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(٧) طبقات السلمي، ص ١٠؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٧.
(٨) تهذيب النووي، ص ٥٠٤.

وقال في البُعْد عن الناس والزهد فيهم: «عامّة الزهد في الناس»[1]، يعني إذا لم نحب ثناء الناس والانتفاخ بينهم لم نُبالِ بهم وبمذمّتهم. وقال أيضًا: «إن قدرت أن لا تُعرَف فافعَل، وما عليك إن لم يُثْنَ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا»[2]. وقال: «كن شاهدًا لغائب ولا تكن غائبًا لشاهد»[3]، أي إذا كنت في جماعة الناس فاخفِ شخصك واحضر قلبك وسمعك، وعِ ما تسمع، فهذا شاهد لغائب، ولا تكن غائبًا لشاهد، أي تحضر المجالس بيدك، وسمعك وقلبك لاهٍ ساهٍ.

بطبيعة الحال؛ إن مواقف كهذه لا بدّ أن تلقى قبولاً عند بعض الناس، كما وتلقى معارضة شديدة عند البعض الآخر منهم، ولا بدّ أن يكون الفُضَيل قد عوتب تجاه هذا الأمر، ولكن المصادر لم تُفصِح عن ذلك، في حين ذكرت أنه لما عوتب في عزلته وتركه حلقات العلم، وتخلّيه عن الشُّهرة التي حَظِي بها، قال: «مَن أحبّ أن يُذكَر لم يُذكَر ومَن كره أن يُذكَر ذُكِر»[4].

والملاحظ؛ أن الفضيل كان يتبنّى هذه الفلسفة ويعمل على غرسها في نفوس أبنائه ولا سيما في ابنه علي الذي كان يسير على نهج أبيه في حبّ العُزلة والخوف من الله عزّ وجل، ودليلنا على ذلك أنه لما قيل له: «إن عليًّا ابنك يقول: وددت أني بمكان أرى

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٨.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢.

الناس ولا يروني، فبكى وقال: ويح عليّ أفلا أتمّها فقال: لا أراهم ولا يروني»[١].

ولو تركنا الناحية النظرية في عُزلة الفُضَيل وانتقلنا إلى الناحية العملية، نجده يطبّق القول بالفعل، مما يثبت أن أقواله تلك كانت صادرة عن تجربة ذاتية، ومُعاناة راسخة في كيانه ووجدانه.

وبالفعل فقد كان الفُضَيل يفرّ من الناس ويطلب السلامة منهم، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «إني لأسمع صوت حلقة الباب فأكره ذلك قريبًا كان أم بعيدًا...»[٢]، وقال أيضًا: «إني لأجد للرجل عندي يدًا إذا لقيني لا يسلّم عليّ، فإذا مرضت لا يعودني»[٣]، وأكد هذا الأمر بشر الحافي، فذكر أنه كان يقول: «أشتهي أن أمرض بلا عوّاد»[٤].

وذكرت المصادر؛ أنه كان يكره لقاء الإخوان مخافة أن يتزيّن لهم أو يتزيّنوا له فيغضب بذلك الله عزّ وجل، حدّث علي بن الحسن فقال:

«بلغ الفُضَيل أن جريرًا[٥] يُريد أن يأتيه، فأقفل الباب من خارج، فجاء فرأى الباب مقفلاً، فرجع، فأتيتُه، فقلت له: جرير.

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٤.
(٣) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٦.
(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٠؛ صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٠.

قال: ما يَصْنعُ بي، يُظهر لي محاسنَ كلامه، وأُظهِرُ له محاسن كلامي، فلا يتزيّنُ لي وّلا أتزيّنُ له، خيرٌ له»[١]. ثم عقّب على ذلك بقوله: «لو قيل لي أمير المؤمنين داخل عليك فسوّيتُ لحيتي خفت أن أُكتَب في جريدة المنافقين»[٢].

إن هذه الشواهد تؤكد أيضًا؛ أن الفُضَيل كان متأثّرًا بالفقيه الزاهد داود الطائي الذي كان يعتمد الأسلوب نفسه حينما قرّر الدخول في عزلته الكبرى[٣].

ذكرت المصادر أن الفُضَيل أتى داود الطائي يعوده فقال له: «أقلِل من زيارتنا فإني خليت الناس»[٤]، وقال محمد بن بشر العبدي: «جاء فُضَيل يومًا إلى داود الطائي فلم يفتح له، فجلس فُضَيل خارج الباب، وهو داخل. فبكى داود من داخل وفُضَيل من خارج، ولم يفتح له»[٥] فقال له الفُضَيل: «دُلّني على رجل أجلس إليه، قال: تلك ضالّة لا توجد»[٦]، فقيل لمحمد بن بشر: كيف

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٣. (ذكر الذهبي أنه يدعى حريزًا ـ المكان نفسه ـ في حين لم نتمكّن من حسم هذا الخلاف ونُدرِج ترجمة له لعدم وضوح هذا الأمر) انظر تهذيب ابن حجر، ج ٢، ص ٦٩ وما بعدها، ص ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.

(٣) انظر: داود الطائي، ص ٤٩ـ ٦٣.

(٤) ذيل الجواهر المضيّة، ج ٢، ص ٥٣٨.

(٥) الحلية، ج ٧، ص ٣٥٣.

(٦) ذيل الجواهر، ج ٢، ص ٥٣٨.

لم يفتح له الباب؟ قال: «كان يفتح لهم، وكثروا عليه فغمّوه فحجبهم كلهم، فمَن جاءه كلّمه من وراء الباب»[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل إن هذه الحادثة أثّرت بالفُضَيل إلى حدٍّ جعلته يتبنّى مبدأ العُزلة؟ أم إن ما بلغه داود الطائي من شُهرة بفضل عُزلته؛ جعلت الفُضَيل يسير على هذه الدرب لينال بذلك المجد نفسه؟

مهما يكن الجواب على هذه التساؤلات؛ فإن الفُضَيل وضع حدًّا لمراجعته في أمر عُزلته وأخبر أصحابه بصدق مشاعره، فقال: «إذا أقبل الليل فرحت به وقلت: أخلو بربّي ولا أرى الناس، وإذا طلع الفجر استرجعت كراهة لقائهم»[2].

إن هذه التصريحات وغيرها تدفعنا للبحث في حياة الفُضَيل خلال خلوته، التي لا بدّ أن تكون مشحونة بالعبادة والتقوى والتضرّع والمُناجاة، وغير ذلك من الأمور التي تقرّب العبد إلى ربّه؛ بما فيها من مُحاسبة النفس على ما ارتكبته في سابق عهدها من مَعاصٍ وآثام

ب ـ صنيع الفُضَيل في عُزلته:

من المؤكد؛ أن الفُضَيل كان خلال عُزلته يعيش في صراع مع ذاته المعذّبة، التي تصارع ماضيها الأليم، الذي لم يورثها إلاّ

---

(١) صفة الصفوة، ج ٣، ص ٨٣.
(٢) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.

الحسرة والندامة، لهذا كان ينحو على نفسه باللائمة، ويعاتبها ويكبتها، ويكبح جماحها ويذلّها، حتى تستكين له وتأتيه طائعة زاهدة ورعة، بعيدة عن ملذّات الحياة، ومختارة العزلة، ومتفرّغة للعبادة.

ودليلنا على ما قدّمناه، أنه سُمِع يقول لنفسه وهو في خلوته: «تزينتَ للناس وتصنّعتَ لهم، وتهيّأت ولم تزل تُرائي حتى عرفوك فقالوا: هو رجل صالح، فأكرموك وقضوا لك الحوائج ووسّعوا لك في المجالس وعظّموك، خيبة لك ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك!»[1].

وسمعه الفيض بن إسحٰق يقول: «تزيّنت لهم بالصوم فلم ترهم يرفعون بك رأسًا، تزيّنت لهم بالقرآن فلم ترهم يرفعون بك رأسًا، تزيّنت لهم بشيء بعد شيء، إنما هو لحبّ الدنيا»[2].

وسمعه إسحٰق بن إبراهيم يخاطب نفسه فيقول: «ما أراه أخرجك من الحِلِّ فدسّك في الحرم إلاّ ليُضعف عليك الذنب، أما تستحي تذكرُ الدينار والدرهم، وأنت حولَ البيت (الكعبة)، إنما كان يأتيه التائب والمستجير»[3].

والملاحظ؛ أنه كان يعاني من تخبّط داخلي حيث تتجاذبه مباهج الدنيا من جهة، ويطمح إلى العفو والمغفرة والراحة الأبدية

---

(١) الحلية؛ ج ٨، ص ٩٤ قابل: المصدر نفسه، ج ٨، ص ١١١؛ صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٠.

(٢) صفة الصفوة، المكان نفسه؛ قابل: الحلية، ج ٨، ص ٩٨.

(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٧.

من جهة أخرى، فسُمِع يعاتب نفسه ويردعها ويقول: «أيّ شيء تخاف؟ أن تجوع! لا تخف، فأنت أهون على الله من ذلك، إنما يجوع محمد (ﷺ) وأصحابه»[1].

وفي موقف آخر سُمِعَ يقول: «يا مسكين، أنت مُسيء وترى أنك مُحسِن، وأنت جاهل وترى أنك عالِم، وتبخل وترى أنك كريم، وأحمق وترى أنك عاقل، أجَلك قصير، وأملك طويل»[2].

وعلّق شمس الدين الذهبي على ذلك بقوله: «أي والله، صدق الفُضَيل، وأنت ظالم وترى أنك مظلوم، وآكل اللحوم وترى أنك متورّع، وفاسق وتعتقد أنك عدل، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبه لله»[3].

إلى جانب ذلك؛ سمعه إبراهيم بن الأشعث يعاتب نفسه ويقول: «يا سفيه ما أجهلك، ألا ترضى أن تقول أنا مؤمن حتى تقول: أنا مستكمل الإيمان؟ لا والله! لا يستكمل العبد الإيمان حتى يؤدّي ما افترضه الله تعالى عليه، ويجتنب ما حرّم الله تعالى عليه، ويرضى بما قسم الله تعالى له، ثم يخاف مع ذلك أن لا يقبل منه»[4].

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٠.
(٣) المكان نفسه.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠١.

فالفُضَيل يجد نفسه لم يبلغ بعد درجة الإيمان على الرغم من تفانيه في العبادة والتقوى والزهد والورع لهذا كان يقول: «لو قال لي رجل: أمؤمن أنت؟ ما كلّمته أبدًا»[1].

نخلص إلى القول: إن هذه القضايا والتصريحات التي ينعت الفُضَيل بها نفسه، تجعلنا في ريبة من أمره، وبالتالي تزرع الشك في صحة الصورة التي كوّنّاها عنه استنادًا إلى المصادر الأصلية.

على كل حال؛ لا يمكن لنا أن نتيقّن من جوهر الرجل، إلاّ بعد مقابلة هذه الاعترافات بالواقع الذي كان يعيشه، ولا سيما بعد توبته وإقباله على علم الحديث، ومن ثَمّ عُزلته وتفرّغه للعبادة الخالصة لله عزّ وجل، والتي توّجها بزهد وورع صادقين.

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠١.

الفصل الثالث
الفُضَيل بن عِياض ونشاطه الديني

١ - عبادته وتقواه:

كان الفُضَيل من العُبّاد المذكورين بالخير والصلاح ونقاء السّريرة، لذا؛ قال فيه الأئمة والعلماء والنقّاد ما يبيّن عبادته الحقّة وإيمانه الراسخ، وهذا ما يعزّز مقامه ويُبرِز مكانته بين مُعاصِريه، فهو يأتي وفق ترتيب ابن أبي عمر[١] في طليعة العبّاد الذين رآهم في حياته، فقال: «ما رأيت بعد الفُضَيل أعبد من وكيع[٢]»[٣].

---

(١) هو محمد بن يحيىٰ بن أبي عمر العدني، أبو عبد الله الحافظ نزيل مكة، روى عن ابن عُيينة والفُضَيل بن عِياض وعنه: مسلم، والترمذي وابن ماجة، كان صدوقًا، مات سنة ٢٤٣/٨٥٧، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، ج ٩، ص ٥١٩).

(٢) هو وكيع بن الجراح أبو سفيان الكوفي الحافظ، كان عابدًا صالحًا أديبًا، متّفق على توثيقه توفي سنة ١٩٦/٨١١. (ثقات العجلي، ص ٤٦٤؛ تهذيب ابن حجر، ج ١١، ص ١٢٣).

(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨.

وقال خادمه إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفُضَيل. . .»[١].

ووفق رأي عبد الرحمن بن مهدي[٢]، والعجلي[٣]، هو «رجل صالح متعبّد». وبشهادة ابن سعد: «كان فاضلاً عابدًا وَرِعًا»[٤]. ويرى فيه ابن أبي الوفا القرشي: «أحد صلحاء الدنيا وعبّادها»[٥].

وعلى العموم؛ فقد أجمع النقّاد على صَلاَح الفُضَيل وفضله[٦] وتفانيه في العبادة والتقوى، حتى أصبح قُدوة لمَن جاء بعده وسلك تلك الطريق، بل غَدَا أُستاذًا متبحّرًا يُعَلّم الخلق أُصول العبادة الخالصة التي يرتضيها الخَالق عزّ وجل، فكان يقول:

«اجعلوا دينكم بمنزلة صاحب الجوز، إن أحدكم يشتري الجوز فيحرّكه، فما كان من جيّد جعله في كمّه، وما كان من رديء ردّه، وكذلك الحكمة، مَن تكلّم بحكمة قبل منه، ومَن تكلّم بسوى ذلك فدعه»[٧].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٢) الجرح والتعديل، ج ٧، ص ٧٣؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.
(٣) تاريخ الثقات، ص ٣٨٤.
(٤) الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٥٠٠.
(٥) الجواهر المضيّة، ج ١، ص ٤٠٩.
(٦) تهذيب النووي، ص ٥٠٣.
(٧) الحلية، ج ٨، ص ٩٩.

وقبل أن نتطرّق إلى ممارسة الفُضَيل لشتّى أنواع العبادات؛ يُحْسِنُ بنا أن نتناول موقفه من العبادة وأقواله فيها، ليتسنّى لنا تكوين فكرة عامّة عن تعمّقه في قضايا الدين والدنيا

أ ـ عبادته، أقوال ومواقف:

الملاحظ؛ أنه كان للفُضَيل مواقف صريحة بما يخصّ العبادة، وقد عبّر عنها بأقوال ناقدة؛ أشار من خلالها، وبجرأة متناهية، إلى الجماعات المعنية بهذا الأمر قبل غيرهم، كما لفت الأنظار إلى المبادىء الأساسية التي تتطلبها العبادة الحقّة، وهي تشمل: الرضا والصدق والمحبة، والثقة بالله عزّ وجلّ والتوكّل عليه.

فبالنسبة للرضا عن الله تعالى قال: «أحقّ الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة به»(١)، ويأتي في طليعة العارفين به عزّ شأنه؛ الأئمة والعلماء وجمهرة العبّاد الزاهدين الورعين. ثم يحدّد درجة الرضا بقوله: «درجة الرضا عن الله عزّ وجل درجة المقرّبين ليس بينهم وبين الله تعالى إلاّ روح وريحان»(٢).

بعد ذلك؛ يدلّ الفُضَيل على الطريق الفُضلى التي تقرّبنا إلى الله فيقول: «مَن عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومَن عرفه من طريق الخوف انقطع عنه بالبُعْد

---

(١) طبقات السلمي، ص ١٠؛ الحلية، ج ٨، ص ١٠٤؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.

(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٧.

والاستيحاش، ومَن عرفه من طريقهما معًا أحبّه وقرّبه ومكّنه وعلّمه، ومَن عرف الله حقّ المعرفة فهو بعيد من الضلال»[1].

فيما بعد؛ يدعو الفُضَيل إلى التعامل مع الله بصدق وإخلاص حتى تستقيم الأمور بين الخالق وعباده، فقال: «عاملوا الله عزّ وجل بالصدق في السرّ، فإن الرفيع مَن رفعه الله، وإذا أحبّ الله عبدًا أسكن محبته في قلوب العباد»[2]، وقال أيضًا: «ما تزيّن العباد بشيء أفضل من الصدق، إن الله يسأل الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكاذبين؟»[3].

وعن محبة الله تعالى قال: «حقيقة المحبة إيثار المحبوب على الكونين في القُرب والبُعد»، وقال أيضًا: «مَن ادّعى العبودية وله مراد باقٍ فقد كذب»[4] لأن مَن وهب نفسه لله؛ تصغر في ناظريه سائر الشهوات والمُغرَيات.

ويرى الفُضَيل أيضًا؛ أن أفضل ما تتوّج به العبادة هو الإيمان، ولكن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يمرّ بتجارب عديدة تؤهّله في النهاية لأن يحمل لقب «مؤمن»، لهذا قال: «لا يبلُغُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يَعُدَّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وحتى لا يبالي من أكل الدنيا، وحتى لا يحبّ أن يُحمَد على عبادة

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٨٨.
(٣) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٠.

الله عزّ وجل»[1] وقال أيضًا: «مَن طلب الحمد من الناس بتركه الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء»[2].

ويؤكّد الفُضَيل؛ أن العبد لا يستكمل الإيمان حتى يقوم بواجباته كاملة، فيؤدّي ما فُرض عليه من العبادات، ويُقلِع عن سائر المُحَرّمات، ويرضى بما قسم الله تعالى له، وعلى الرغم من ذلك؛ يبقى العبد المؤمن خائفًا وجِلاً من أن لا يتقبّل الله عزّ وجل عمله، وهذا كله من شدّة الحرص، خشية أن يفوته الرضا ويُسلَب الإيمان ويَخْسَر بالتالي العفو والمغفرة.

ولكي يجعل الفُضَيل المؤمن يعيش في فسحة من الأمل والأمان؛ فقد كان يحدّث بحديث منصور عن مجاهد[3]، فيقول: «إن المؤمن إذا مات بكت عليه الأرض أربعين يومًا»[4].

بعد ذلك؛ أخذ يبيّن مزايا الإيمان، ثم عَرَّجَ على ذكر صفات الرجل المؤمن، وقارن ذلك بصفات المنافق والفاجر، فقال: «الغبطة من الإيمان، والحسدُ من النفاق، والمؤمن يَغْبِطُ ولا يحسدُ، والمنافق يحسد ولا يغبط، والمؤمن يستر ويعظ وينصح، والفاجر يهتك ويعيّر ويفشي»[5]، ثم أضاف قائلاً:

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٤؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.

(٢) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) هو مجاهد بن جبر المكّي أبو الحجّاج، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في: (تهذيب ابن حجر، ج ١٠، ص ٤٢).

(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٥؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٧.

«المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل، كلام المؤمن حكم، وصمته تفكّر، ونظره عِبرة، وعمله برّ، وإذا كنت كذا لم تزل في عبادة»[1]، ثم قالها كلمة مدوّيّة لا مُداراة فيها ولا مُحاباة: «لأن يصحبني فاجرٌ حَسَنُ الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني عابدٌ سيىء الخلق. إن الفاسق إذا حسّن خُلُقَهُ خَفَّ على الناس وأحبّوه، والعابد إذا ساء خلقه ثقل عليهم ومقتوه»[2].

إلى جانب ذلك؛ فقد كان يدعو الناس إلى ذكر الله، والثقة به والتوكّل عليه، وأن يشكروه على نعمه، ولا يقنطوا من رحمته، فعن الشكر والذكر والتوكّل قال: «إن من شُكْر النعمة أن تحدّث بها»[3] أُسوة بما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وأما بِنِعْمَةِ رَبك فَحَدِّثْ**﴾[4]. وفي الذِّكْر قال: «الذّاكر سالم من الإثم ما دام يذكر الله، غانم من الأجْر»[5]، وفي التوكّل قال: «المتوكّل الواثق بالله؛ لا يتّهم ربّه، ولا يستشير وليّ الله، ولا يخاف خذلانه ولا يشكوه»[6].

ثم تحدّث عن توكّله الشخصي فقال: «إنِّي لأستحي من الله أن أقول: توكّلتُ على الله، ولو توكّلتُ عليه حقَّ التوكّل، ما

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٨.
(٢) التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٢٢٤.
(٣) طبقات السلمي، ص ١٣.
(٤) سورة الضحى، آية: ١١.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩.
(٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٥.

خفتُ ولا رجوتُ غيره»[1] فالشكوى بشُرعة الفُضَيل يجب أن لا تكون إلاّ لله وحده، فهذا هو المبدأ الذي اعتنقه الفُضَيل، فطبّقه على نفسه ثم دعا الناس إليه. وقد حدّث الأصمعي عن هذا الأمر فقال:

«نظر الفُضَيل إلى رجل يشكو إلى رجل، فقال: يا هذا تشكو مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك!»[2]. ورأى رجلاً مغمومًا فقال: «أتخشى أن يكون لك رزق لا تستوفيه، قال: لا، قال فتخشى أن يكون غير ما شاء الله؟ قال: لا، قال: فلأيّ شيء غمّك؟»[3].

وحدّث عبد الصمد بن يزيد قال: «شكا أهل مكة إلى الفُضَيل القَحْط؛ فقال: أمدبِّرًا غير الله تريدون»[4].

وبعد أن خلص الفُضَيل من عرض مزايا العبادة النقيّة بأسلوب التحبيب والترغيب؛ انتقل إلى دور التهديد والوعيد؛ محذِّرًا الناس من غضب الجبّار عزّ وجل، فقال: «أوصى الله إلى بعض أنبيائه، إذا عصاني مَن عرفني سلّطت عليه مَن لا

---

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٧٨؛ قابل: التذكرة الحمدونية، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٩؛ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ١٢٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩.

(٣) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٦٥، ط ١، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨/١٩٣٠؛ العقد الفريد، ج ٣، ص ١٦٨.

يعرفني»[1]، وقال أيضًا: «في الإنجيل مكتوب: ابن آدم أطعني فيما أمرتك، ولا تُعَلِّمني بما يَصْلُحك»[2]، فإذا أطعتني فسوف أُلَبّي حاجاتك وأُوفّيك حقّك وأجْرك. ثم دعا العبد ليفرح بالدين ويحزن من الدنيا لأنها تُبعِده عن الله فقال: قال الله تعالى: (أيحزن عبدي المؤمن أن أبسط له الدين وهو أقرب له منّي، ويفرح أن أبسط له في الدنيا وهو أبعد له منّي!)[3].

ولما لاحظ القوم صعوبة المنزلق ورهبة الطريق بدأوا يتساءلون عن الخلاص مما هم فيه، فسأله عبد الله بن مالك: يا أبا علي ما الخلاص مما نحن فيه؟ فقال له: «أخبِرْني مَن أطاع الله عزّ وجل هل تضرّه معصية أحد؟ قال: لا! قال: فمَن عصي الله سبحانه وتعالى هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا! قال: فهو الخلاص إن أردت الخلاص»[4].

ولا ريب؛ أن الفُضَيل كان يسير، بعد توبته الخالصة، وفق تعاليمه التي كان ينشرها بين الناس، فكان يتعامل مع الله بصدق وإيمان وتوكّل راسخ لا يزعزعه الحدثان. فعن صدقه مع الله وبُعده عن التزلّف في السرّ والعلانية كان يقول: «لأن أطلب الدنيا بطبل ومِزمار، أحبّ إليّ من أن أطلبها بالعبادة»[5].

---

(1) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(2) الحلية، ج ٨، ص ١١٠.
(3) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠١.
(4) الحلية، ج ٨، ص ٨٨؛ النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٢.
(5) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦١؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.

وأما عن إيمانه وتوكّله على الله وعدم يأسه من رحمته وعفوه، وحُسْن الظن به عزّ وجل، فكان يقول: «وعزَّته، لو أدخلني النار فصرت فيها ما أيست»[1]، وعن حبّه قال: «إلهي، لو عذّبتني بالنار لم يخرج حُبُّك من قلبي، ولم أنسَ أياديك عندي في دار الدنيا»[2].

وبما يخصّ صبره على المصائب وكظمه الغيظ، فقد ثبت القول بالفعل. فقال أبو علي الرازي: «صَحبت الفُضَيل بن عِياض ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكًا ولا مبتسمًا إلاّ يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إن الله عزّ وجلّ أحبّ أمرًا فأحببت ما أحبّ الله»[3].

بالنتيجة؛ فإن الفُضَيل هو إنسان مثل كل البشر، يُصيب ويُخطىء ويزهد ويرغب، ولا بدّ أن تكون له زلّة قدم خلال تعامله مع أهل بيته أو مع صحبه وإخوانه وأبناء مجتمعه، غير أن تلك الأمور لم تكن لتفوته، وإنما كان يدركها ببصره وبصيرته فيعلم مدى إغضابه للخالق عزّ وجل، وقد أفصح عن ذلك خلال وجوده في مكّة. فسُمِعَ يقول وهو في المسجد الحرام: «أصلح ما أكون

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٨؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢.
(٢) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٢١.
(٣) الرسالة القشيرية، ص ٩؛ الحلية، ج ٨، ص ١٠٠، طبقات الأولياء، ص ٢٧٠؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٩.

أفقر ما أكون، وإني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي»[1].

مهما يكن؛ فإنه لا بدّ لنا من أن نترك الناحية النظرية في موقف الفُضَيل من العبادة، وننتقل إلى الناحية العملية لأنها الميدان الأهم في توضيح ممارسته لواجباته الدينية.

٢ـ ممارسته للعبادة:

الملاحظ؛ أن الفُضَيل كان يُقبل بشغف على تأدية الواجبات الدينية التي فُرِضت على المسلمين، كالصلاة والصيام والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها. وأما بالنسبة للجهاد في سبيل الله، فيبدو أنه كان له نظرته الخاصّة به، وسوف نتناولها فيما بعد.

أما عن العبادة؛ فهي في شُرعة الفُضَيل: «أداء الفرائض»[2]، فبها يتقرّب المرء إلى ربّه، لذا قال: «لن يتقرّب العباد إلى الله بشيء أفضل من الفرائض، الفرائض رؤوس الأموال والنوافل الأرباح»[3].

والجدير ذكره؛ أن أول ما يُطالعنا من النشاط الديني للفُضَيل، هو إقباله على الصلاة، ولا سيما صلاة الليل، التي كان

(١) الرسالة القشيرية، ص ٩؛ صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨، وانفرد ابن كثير في البداية والنهاية ببعض الإضافات، فقال: «...وامرأتي وفأر بيتي» (ج ١٠، ص ١٩٩).
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٠.

يدعو الناس إليها باعتبارها واحدة من أهم ما يتحلّى به الأنبياء (ع). فكان يقول: «من أخلاقِ الأنبياء، الحلمُ، والأناةُ، وقِيام الليل»[1].

وإلى جانب ذلك: كان يدعو إخوانه إلى صلاة الجماعة، فعلى الرغم من عُزلته وتركه الاختلاط بالناس، كان يقول: «. . .فرّ من الناس غير تارك للجماعة»[2].

والثابت بملاحظة المؤرّخين؛ أنه كان كثير الصلاة والصوم[3]، وكان يعتبر قيامه بذلك من نِعَم الله عليه، لهذا كان يقول: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محرومٌ مكبّل، كبّلتك خطيئتُك»[4].

وقد أمدّنا إسحٰق بن إبراهيم بصورة حيّة عن ممارسة الفُضَيل للصلاة فقال: «كانت صلاتُه بالليل أكثر ذلك قاعدًا، يُلقى له الحصيرُ في مسجده، فيُصلّي مِن أول الليل ساعة، حتى تغلبه عينُه، فيُلقي نفسه على الحصير، فينامُ قليلاً ثم يقوم، فإذا غلبه

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٧.
(٢) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٥.
(٣) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٦؛ صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٨.

النومُ نام ثم يقوم، وهكذا حتى يصبح»[1]، ويقال: «أشدُّ العبادة ما يكون هكذا»[2].

وأكّد الفُضَيل على هذه الحقيقة، دون أن يشير إلى نفسه، كما هو دأبه دائمًا، لأنه يستحي من الله أن يشهر حاله، لهذا تحدّث عن ممارسة أقرانه وإخوانه في حين كان هو المقصود بذلك، وربما يكون ابنه عليًا[3].

قال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول: «أدركت أقوامًا يستحيون من الله سواد الليل، من طولِ الهجعة، إنما هو على الجنب، فإذا تحرّك قال: ليس هذا لكِ، قومي خذي حظّكِ من الآخرة»[4].

وعلى الرغم من هذا الواقع الذي كان يعيشه الفُضَيل؛ فقد كان يجد نفسه مقصّرًا في عبادته للخالق، فكان يقول: «إني لأنصرف من صلاتي وأنا مستحي من الله أكثر من استحياي إذا شربت خمرًا»[5].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٨؛ قابل: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩، طبقات الأولياء، ص ٢٧٠.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٨٦.
(٣) عن محمد بن الحسن أنه قال: «كان علي بن الفُضَيل يصلّي حتى يزحف إلى فراشه، ثم يلتفت إلى أبيه فيقول يا أبتَ سبقني العابدون» (صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٤).
(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠٨؛ صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦١.
(٥) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.

وقيل: إنه كان أثناء صلاته يعاتب نفسه ويؤنّبها، فكان إذا صلّى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر، وربما أمسك لحيته وهو واقف، وبكى حتى بلّ الثرّى من العشاء إلى الصباح، ويقول:

«ويحك يا فُضَيل كنت في صِباك فاسِقًا؛ وصرت في آخر عمرك مُرائِيًا، والله المُرائي أشدّ من الفاسق»، وكان كثيرًا ما يغلب عليه النوم فيصير دائرًا في داره تصدم رأسه الحيطان إلى الصباح ثم ينشد:

وكيف تنام العين وهي قريرة
ولم تدرِ في أيّ المحلين تنزل[1]

والملاحظ؛ أن الفُضَيل كان في صلاته خاشعًا ذليلاً، يذوب في ذات الله عزّ وجل، وكانت صلاته أيضًا؛ لا تخلو من المناجاة والرجاء والدعاء، فكان يقوم بذلك كله وهو في حزن عميق، وخوف ورهبة من القدرة الإلهية ويوم الحساب.

ففي مناجاته الممزوجة بالشكر؛ كان يعمل وفق ما جاء في القرآن الكريم: ﴿**فاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي وَلا تَكْفُرُون**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**. . . واشكُرُوا الله إن كُنتُمْ إيّاهُ تعبدون**﴾[3]. فكان الفُضَيل يخاطب الله عزّ وجل بذلٍّ وخُشوع ويقول في مناجاته:

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩ـ ١٥٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٢.
(٣) السورة نفسها، آية: ١٧٢.

«أجَعْتَني وأجَعْتَ عِيالي، وتركتني في ظلم الليل بلا مِصباح، وإنما تفعل ذلك بأوليائك، فبأيّ منزلة نلت هذا منك؟»[1].

وبعد المناجاة؛ كان الفُضَيل ينتقل إلى الدعاء، الذي يعتبر شاطىء الأمان وإليه يدعو الله عباده ليعتصموا به، لأنه مُنجِيهم من البلاء، فقال في كتابه العزيز: **﴿وإذا سَألَكَ عِبادي عَنّي فإني قَريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دعانِ فليستجيبُوا لي وليُؤمِنُوا بي لَعَلَّهُم يَرشُدُونَ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿ادعُوني أستجِيب لكُم﴾**[3]، وقال عزّ شأنه: **﴿فَلولا إذ جاءهُم بَأسُنَا تَضَرّعُوا ولكِن قَسَتْ قُلُوبُهم﴾**[4].

وقال النبيُّ (ﷺ): «الدعاء سلاحُ المؤمن، والدعاء يرُدُّ القَدَر، والبرّ يزيد في العُمر»[5]، وقال (ﷺ): «استقبلوا البلاء بالدعاء»[6]. وجاء في الحديث الشريف عن جرير بن عبد الله عن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال: «قال ربُّكم عزّ وجل ثلاثة: واحدة لي، وواحدة لك يا بن آدم، وواحدة بيني وبينك، فأما التي لي فتُخلِصُ لي لا تُشرك بي شيئًا، وأما التي لك فأحوجُ

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٦.
(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٤٣.
(٥) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢١٨؛ أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب ٦؛ وابن ماجة، في كتاب السُنَن، المقدمة، باب ١٠، ط. القاهرة، ١٣١٣هـ.
(٦) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢١٨.

ما تكون إلى عملك أُوفِّيكه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاءُ وعليَّ الإجابة»[(١)].

وقال الإمام عليّ بن أبي طالب: «عجبًا ممّن يَهلك والنجاة معه! قيل له وما هي؟ قال: الاستغفار»[(٢)].

وقال سفيان الثوري: «دخلت على جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما، فقال لي: يا سفيان، إذا كثرت هُمومك فأكثر من لا حَولَ ولا قُوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وإذا تَدَارَكَتْ عليك النِّعَم فأكْثر من الحمدُ لله، وإذا أبطأ عنك الرزق فأكثِر من الاستغفار»[(٣)].

وكان الفُضَيل بدوره يسير وفق هذا النهج، فآمن بفضيلة الدعاء، وعمل على تعليمه لأبناء مجتمعه ليكتمل بذلك دوره الاجتماعي وبالتالي يكسب الأجْر والثواب وثقة الناس به. فسُمِعَ يقول لرجل:

«لأعلِّمَنَّك كلمة خير من الدنيا وما فيها: والله! لئن علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك، حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره، لم تسأله شيئًا إلاّ أعطاك»[(٤)].

---

(١) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨، عن الأحاديث المختصّة بالدعاء انظر؛ آري فنسك، مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٩ ـ ١٩٤، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ.

(٢) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٢١؛ النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٣.

(٣) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٢١ـ ٢٢٢.

(٤) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦١؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٨.

وقال حسين بن حسن: «أخذ الفُضَيل بن عِياض بيدي، ثم قال: يا حسين، يقول الله: كَذَبَ مَن ادّعى محبتي وإذا أجنّه الليلُ نام عنّي، أليس كل حبيب يُحبّ خلوة حبيبه! هاأنذا مُطلّعٌ على أحبائي، إذا أجنّهم الليلُ جعلت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت نفسي بين أعينهم، فخاطبوني على المشاهدة وكلّموني على الحضور»[1].

ففي مبدأ الفُضَيل، إن الذي يعرف الله حقّ معرفته، ويحبّه بصدق، لا يسهو عن ذكره ومناجاته والشكر له آناء النهار وفي جوف الليل.

انطلاقًا من هذه المبادىء، كان الفُضَيل متمسكًا بالدعاء، غير أن أدعيته لم يكن فيها دعاء الفقير الذليل، بل كانت دعوة الغني العزيز الذي ينشد العزّة بالله، فكان يقول: «أعـزّنـا بعزّ الطاعة، ولا تذلّنا بذلّ المعصية»[2]، فالعزّة بشُرعَة الفُضَيل تتجلّى في إطاعة الباري، والذلّ أكثر ما يتمثّل في معصيتنا إيّاه، وإقبالنا على ما نهانا عنه.

والملاحظ؛ أنه من كثرة حبّ الفُضَيل للدعاء، كان يقصد الصالحين والصالحات بغية التبرّك بدعائهم. فلعلّه بذلك ينال شفاعتهم، ويفوز عند الله بالعفو والقبول. وقد تحدّث هو عن

---

(١) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٠٠.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٣.

تجربته وسعيه إلى إحدى العابدات فقال: «قَدِمَت شعوانةُ[1]، فأتيتُها فشكوتُ إليها وسألتها أن تدعو الله بدعاء، فقالت: يا فُضَيل! أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب لك». قال مَن حضر: «فشهق الفُضَيل شهقة فخرّ مغشيًّا عليه»[2].

ويبدو أخيرًا؛ أن الفُضَيل كان يقرن الدعاء بالاستغفار منطلقًا من قوله تعالى: ﴿واستَغْفِرُوا الله إن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]، لهذا كان يوضح معنى الاستغفار ليقرّبه إلى عقول الناس، فيقول: «قول العبد أستغفر الله؛ يعني أَقِلني يا ربّ»[4].

٣ـ خوف الفُضَيل وحزنه وبكاؤه:

من خلال الروايات المتواترة؛ يتّضح أن الفُضَيل كان يمارس العبادة وهو في رهبة وحزن عميقين، ولعلّ تلك الحالة أورثته إيّاها حياته السابقة لتوبته؛ حين كان شاطرًا يقطع الطرق ويعتدي على ممتلكات الناس وأرواحهم.

مهما يكن؛ فالثابت وبشهادة المؤرّخين وأئمة المحدّثين، فقد كان «شديد الخوف دائم الفكر»[5]، ويغسل ذنوب الماضي بالبكاء والتوجّع.

---

(١) هي من عابدات الأبله، ذكرها ابن الجوزي في المصطفيات. (صفة الصفوة، ج ٤، ص ٤٧ وما بعدها).
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٣؛ الصفوة، ج ٤، ص ٤٩.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٩.
(٤) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٣.
(٥) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨؛ قابل أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.

قال علي بن الحسن: «ما رأيت أخوف منه...»[1]. وقال إسحٰق بن إبراهيم الطبري: «ما رأيت أحدًا كان أخوف على نفسه ولا أرجى من الفُضَيل»[2]. وأما سفيان بن عُيينة: فلم يرَ أحدًا أخوف من الفُضَيل وابنه عليّ[3]. وقال خادمه إبراهيم بن الأشعث: «كان إذا ذكر الله، أو ذُكرَ عنده، أو سمع القرآن، ظهر من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه مَن يحضُره...»[4]. ولعلّ هذا الأمر أثّر على صحته؛ لهذا قال صاحب حلية الأولياء: «كان من الخوف نحيفًا...»[5].

وبطبيعة الحال؛ إن إخوان الفُضَيل قد لاحظوا تردّي أوضاعه وما آلت إليه حاله، لذا كانوا يسألونه من حين لآخر عن دوافع خوفه من الله عزّ وجل، فكان يردّ عليهم بقوله: «أعلمُ الناس بالله أخوفهم منه»[6].

وسمعه إبراهيم بن الأشعث يقول: «رهبةُ العبد من الله على قدر علمه بالله عزّ وجل»[7]، وقال أيضًا: «مَنْ خاف اللَّهَ لم يضرّه

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٠.
(٢) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦؛ قابل: تهذيب النووي، ص ٥٠٤.
(٣) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٥. وحدّث الفُضَيل عن بكاء ابنه علي، فقال: «بكى ابني علي، فقلت: يا علي ما يُبكيك؟ قال: يا أبتِ أخاف ألاّ تجمعنا القيامة». (الصفوة، ج ٢، ص ١٦٤).
(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٥) أبو نعيم، ج ٨، ص ٨٤.
(٦) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٧) الحلية، ج ٨، ص ٨٩، ١١٠.

أحدٌ، ومَنْ خافَ غير الله، لم ينفعه أحد»[1]. ثم بيّن فضيلة الخوف من الله، فقال: «مَن خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومَن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»[2]، وأخيرًا لخّص ذلك كله بعبارة موجزة فقال: «إنما يهابك الخلق على قدر رهبتك لله»[3].

وكعادة الفُضَيل دائمًا، فإنه كان يواجه الناس بالترغيب والترهيب، وهنا لما أفرغ ما في جعبته من إرشاد ووعظ؛ لجأ إلى ما وعد الله به عباده فقال[4]: «وعدٌ من الله لمَن خافَهُ أن يُدخله الله الجنة»، وتلا قوله عزّ وجل: ﴿**ولِمَنْ خَاف مَقامَ ربّه جَنَّتَان**﴾[5].

وعلى الرغم من تفاني الفُضَيل في العبادة؛ فقد كان يخجل من مواجهة ربّه بسبب ماضيه القاتم، الذي أورثه الحسرة والندامة، والخوف من البعث ويوم القيامة، وانتصاب الميزان إيذانًا ببدء الحساب.

حدّث محمد بن أبي الحواري عن محمد بن حاتم فقال: قال الفُضَيل: «لو خُيِّرت بين أن أُبعَث فأدخل الجنة، وبين ألاّ أُبعَث لاخترت أن لا أُبعَث، قلت لمحمد بن حاتم: هذا من الحياء؟ قال: نعم! هذا من طريق الحياء من الله عزّ وجل»[6].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦؛ الخزرجي، ص ٢٦٤)

(٢) العقد الفريد؛ ج ٣، ص ١٧٨.

(٣) الحلية، ج ٨، ص ١١٠؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٦.

(٤) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٧٨.

(٥) سورة الرحمن، آية: ٤٦.

(٦) الحلية، ج ٨، ص ٨٤؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.

وأكّد هذا الأمر أبو إسحٰق فقال: قال الفُضَيل بن عِياض: «لو خُيِّرت بين أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لاخترت ذلك»[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، تُرى ما هي الأخطاء الجِسام التي ارتكبها الفُضَيل خلال فترة شبابه، حتى وصل به الأمر إلى أن يُجَشّم نفسه فوق ما تجشّمته من إذلال، ويرتقي بها هذا المرتقى الصعب والمهين؟

ومرة أخرى يتمنّى الفُضَيل أن لا يكون شيئًا على الإطلاق؛ حتى يفرّ من كل مسؤولية قد يواجَه بها في يوم القيامة، فقال: «ما أغبط ملكًا مقرّبًا، ولا نبيًّا مُرسَلاً، يعاين القيامة وأهوالها، ما أغبط إلاّ مَن لم يكن شيئًا»[2].

وأما بالنسبة لحقيقة خوف الفُضَيل ورهبته من مواجهة الأمر، فقد تحدّث منصور بن عمّار[3]، وهو رجل ثقة فقال: «تكلمتُ يومًا في المسجد الحرام فذكرت شيئًا من صفة النار فرأيت الفُضَيل بن عِياض حتى غشي عليه فطرح نفسه»[4].

ولما بلغ الفُضَيل هذه المنزلة من الخوف والحزن أصبح موضع ثقة العارفين والمُريدين الذين تعنيهم بصدق خفايا هذه

---

(1) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢، قابل: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩.
(2) الحلية، ج ٨، ص ٩٠.
(3) أرّخه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٧١ـ ٧٩.
(4) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩.

الأمور، لذا كانوا يترقبون إجاباته بشغف وحماس زائدين، فلما قال له أحدهم: يا أبا علي: «ما لنا لا نرى خائفًا؟ قال: لو كنتَ خائفًا رأيت الخائفين، لأن الثكلى لا يراها إلاّ الثكلى»[1].

وإلى جانب خوف الفُضَيل وهلعه، تتحدّث المصادر عن حزنه وتألّمه، قال إبراهيم بن الأشعث: «كان دائمَ الحزن، شديدَ الفكرة»[2]، وقال عبد الله بن المبارك: «إذا نظرت إلى الفُضَيل، جدَّدَ لي الحزنَ، ومقتُّ نفسي، ثم بكى»[3]. وقال أيضًا: «إذا مات الفُضَيل ارتفع الحزن من الدنيا»[4].

إذا كانت هذه هي آراء ابن الأشعث وابن المبارك في حزن الفُضَيل؛ تُرى ما هي فلسفته الشخصية في تلك الحالة التي عُرِفَ بها، وتناقل القوم أخبارها؟

الواقع؛ أن الفُضَيل قد سلك تلك الطريق، ولا ندري أكان ذلك بمحض إرادته، أم فرضتها الظروف عليه فرضًا بسبب تكبيت الضمير؟ المهم أنه اقتنع بتلك الحياة وفلسفها كما يجب ويرتأي.

ففي أول الأمر، يرى أن الحزن ينزل بالناس بمشيئة الله عزّ وجل، وهو من فضل نِعَمه عليهم ومحبته لهم فقال: «إذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا، أكثر غمَّه، وإذا أبغض عبدًا، وسَّع عليه دنياه»[5].

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨؛ قابل الحلية، ج ٨، ص ١١١.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٣) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٤) الرسالة القشيرية، ص ٩؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٩.
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢؛ شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٨.

بعد ذلك؛ يجد الفُضَيل أن الحزن هو المسلك الطبيعي للعبد المؤمن الذي يَفرُّ بذنوبه إلى الله عزّ وجل فيقول: «المؤمن يهمّه الهرب بذنبه إلى الله، يصبح مغمومًا ويُمسي مغمومًا»[١]. والحزن بعامّة يصغر ويتلاشى مع مرور الأيام، أما حزن التائب فهو أبدي يلازم صاحبه حتى النهاية، فقال: «كل حزن يبلى إلاّ حزن التائب»[٢].

على كل حال؛ فإن الحزن بشُرعَة الفُضَيل يُخفّف من هموم الآخرة، وعلى العكس من ذلك فإن الفرح يذهب برونق وشفافية العبادة، فقال: «حزن الدنيا يذهب بهمّ الآخرة، وفرح الدنيا للدنيا يذهب بحلاوة العبادة»[٣]؛ وإذا ما كان هناك من مواقف معارضة لتلك المبادىء فيقول بصورة جازمة: «ليس هذا زمان فرح إنما هو زمان غموم»[٤].

إلى جانب ذلك؛ كانت للفُضَيل مواقف رائدة تنمّ عن خِبرة في الحياة. حدّث بشر الحافي قال: قال الفُضَيل: «كما أن القصور لا تسكنها الملوك حتى تفرغ، كذلك القلب لا يسكنه الحزن من الخوف حتى يفرغ»[٥]، وقال شاهد عيان: سمعته يقول: «المؤمن في الدنيا، مغموم يتزوّد ليوم معاده، قليل فرحه. ثم بكى»[٦].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠.
(٤) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٥.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٠١.
(٦) المصدر نفسه، ص ١١٠.

والحديث عن بكاء الفُضَيل حديث ذا شجون، وقد حفظت المصادر طرفًا منه، وأول ما نبدأ به عرض موقفه الشخصي، فقال: «ما بكت عين عبد قطّ حتى يضع الربّ عزّ وجل يده على قلبه، ولا بكت عين عبد قطّ إلاّ من فضل رحمة الله»[(١)].

أما بالنسبة لرأي الأئمة المعاصرين له، فيظهر من خلال حديث سَهْل بن راهويه، فقال: «قلتُ لابن عُيينة: ألا ترى إلى الفُضَيل لا تكاد تجفُّ له دمعة، قال: إذا فرح القلب، ندبت العينان»[(٢)].

وحدّث علي بن الحسن، وهو شاهد ثقة فقال: «فما رأيته يودّع أحدًا فيقدر أن يتمّ وداعه، ولقد ودّع جريرًا أتاه بعد الظهر فودّعه، فقال فُضَيل لجرير: أُوصيك بتقوى الله، فلما أراد أن يقول: ﴿إِنَ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[(٣)] خنقته العبرة فترك يده فمضى، فما زال ينشج من موضعه إلى المسجد»[(٤)].

وعن بكائه حدّث منصور بن عمّار فقال: «تكلمت في مجلس فيه سفيان بن عُيينة، وفُضَيل بن عِياض وعبد الله بن المبارك، فأما سفيان بن عُيينة فتغرغرت عيناه ثم نشفتا من الدموع، وأما ابن المبارك فسالت دموعه، وأما الفُضَيل فانتحب، فلما قام فُضَيل وابن المبارك قلت لسفيان: يا أبا محمد ما منعك

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٩.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٩.
(٣) سورة النحل، آية؛ ١٢٨.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٠.

أن يجيء منك مثلُ ما جاء من صاحبيك؟ قال: هذا أكمد للحزن، إن الدمعة إذا خرجت استراح القلب»[1].

وهكذا؛ نجد أنه كان لكل واحد من هؤلاء الأعلام نظرة ذاتية، وفلسفة خاصّة به، بما يختصّ بقضايا الحزن والبكاء، وقد ترجموها وعبّروا عنها بما يوافق تكوينهم الشخصي، ويناسب نمط حياتهم الذي عوّدوا أنفسهم عليه، وكل واحد منهم كان له مبرّراته وقناعته الخاصّة. وهم مُحِقّون فيما ذهبوا إليه.

٤ـ موقفه من الحج والجهاد:

أ ـ الحــجّ:

الملاحظ؛ أن الفُضَيل كان مهتمًا بتأدية فريضة الحج، وهذا شيء طبيعي لسببين جوهريين، أولهما: إن الحج من فروع الدين، وقد فُرِضَ على مَن يستطيع ماديًا وصحيًا من المسلمين، وثانيهما أن الفُضَيل كان مجاورًا في البلد الحرام مما خفّف عنه العبء المادّي، الذي يعتبر العائق الأهمّ[2] أمام القيام بتلك المهمة، لذا أقبل على المواسم بشغف كبير، وقد أكد صاحب الحلية هذه الحقيقة، فقال: «كان للطواف أليفًا»[3].

---

(١) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٧.

(٢) على الأقل بالنسبة للطبعة الفقيرة والمعدمة، في حين يشكّل السبب الصحّي العبء الأبرز بالنسبة للطبقة الغنية والموسرة.

(٣) أبو نعيم، ج ٨، ص ٨٤.

ولكن من المؤسف، أن المصادر التي بين أيدينا لم تمدّنا بمعلومات وافية عن قيام الفُضَيل بذلك الواجب، كما وأنها لم تُشِر إلى عدد الحجّات التي نفّذها في حياته أُسوة بسفيان بن عُيينة[1]، وإنما اكتفت بذكر نُتَف تؤكد على وجوده بين الطائفين حول البيت الحرام.

قال بشر بن الحافي: «كنت بمكة مع الفُضَيل فجلس معنا إلى نصف الليل ثم قام يطوف إلى الصبح، فقلت: يا أبا عليّ ألا تنام؟ فقال: وَيْحَك! وهل أحد يسمع بذكر النار وتطِيب نفسه أن ينام!»[2].

والواضح أيضًا؛ أنه كان يغلب على الفُضَيل أثناء تأديته فريضة الحج، الاستغفار والدعاء بقلب سليم، راجيًا من ذلك العفو والرحمة. ولكن في أحيانٍ كثيرة كانت تخنقه العبرة فيحول البكاء بينه وبين الدعاء.

قال إسحٰق بن إبراهيم: «وقفت مع الفُضَيل بعرفات فلم أسمع من دعائه شيئًا إلا أنه واضعًا يده اليمنى على خدّه وواضعًا رأسه يبكي بكاءً خفيفًا، فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام، فرفع رأسه إلى السماء فقال: واسوأتاه ـ والله منك ـ وإن عفوت ثلاث مرّات...»[3].

---

(١) انظر كتابنا: سفيان بن عُيينة، ص ١٤٨ وما بعدها.
(٢) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٢.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٨٨؛ قابل: أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢.

وقد أكّد مهران بن عمرو الأسدي هذا الأمر، فقال: «سمعت الفُضَيل بن عِياض عشية عرفة بالموقف وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء، يقول: «واسوأتاه، وافضيحتاه، وإن عفوت»[1].

والجدير ذكره؛ أن الفُضَيل لم يَنْسَ، أثناء وجوده في موسم الحج؛ واجباته واهتماماته بقضية الأمر والنهي وتقديم النصيحة للمسلمين، والإفصاح عن رأيه فيهم؛ حتى ولو كان في ذلك فضيحتهم والإساءة إليهم مهما عَلَت مكانتهم الدينية والسياسية. وقد أوضح هذا الجانب شعيب بن حرب[2] فقال:

«بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجل يمدّ ثوبي من خلفي فالتفتّ فإذا بفُضَيل بن عِياض، فقال: لو شُفع فيّ وفيك أهل السماء كنّا أهلاً أن لا يشفع فينا!، قال شعيب: ولم أكن رأيته قبل ذلك بسنة، قال: فكسرني وتمنّيت أني لم أكن رأيته»[3]

---

(١) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩.

(٢) هو شعيب بن حرب المدائني، متّفق على توثيقه، ذكره العجلي في تاريخ الثقات (ص ٢٢١) ومترجم في تهذيب ابن حجر (ج ٣، ص ٣٥٠).

(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩٠، وذكر الشعراني رواية مُغايِرة، فروى عن شُعيب أنه قال: «بينا أنا أطوف إذ لكزني رجل بمرفقه فالتفت فإذا الفُضَيل، فقال: يا أبا صالح إن ظننت أنه شهد الموقف والموسم مَن هو شرّ منّي ومنك فبئس ما ظننت» (الطبقات، ج ١، ص ٧٦؛ الكواكب الدرّيّة، ج ١، ص ١٥٠).

ب ـ الجهـــاد:

ولو تركنا شؤون الحج جانبًا وتناولنا موضوع الجهاد في سبيل الله، الذي كان أئمة المسلمين والفقهاء والمحدّثين الزاهدين ينظرون إليه على أنه فرصة العمر التي يتقرّب العبد بواسطتها إلى ربّه، وبها يتطهّر من ذنوبه ومن أدران الماضي، ولا سيما بعد فوزه بالشهادة التي تؤهّله لدخول الجنة.

غير أننا نجد الفُضَيل الذي كان على بيّنة من كل هذه الأمور؛ يتهرّب من قضية الجهاد والمرابطة في تخوم المسلمين، ويلجأ بالتالي إلى شتّى الحِجَج للدفاع عن وجهة نظره.

حدّث عبد الرحمن بن محمد الخراساني قال: «قيل للفُضَيل بن عِياض أما تحبّ أن تأتي هذه الثغور فتنال من جهاده ورباطه؟ قال: بلى، ولكني سمعت سفيان الثّوري يقول: إن الله إذا أبغض عبدًا أسكنه الثغور وابتلاه بالمعاصي»[1].

وبالعودة إلى موقف الثّوري من الجهاد[2]؛ تبيّن أنه كان يفضّل تلاوة القرآن الكريم على الجهاد، وقد أفصح عن ذلك عبد الحميد الحماني[3]، فقال: «سُئِلَ سفيان وأنا شاهد: الغزو

---

(١) كتاب الدرع، ص ١١٣.

(٢) راجع كتابنا: سفيان الثوري، ص ١٣٧.

(٣) هو عبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيىٰ الحماني الكوفي مولاهم، وحمان من تميم، سمع الأعمش وسفيان (إسماعيل بن إبراهيم البخاري، كتاب التاريخ الكبير، ج ٦، ص ٤٥، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.).

أحبّ إليك أو رجل يقرأ القرآن؟ قال: رجل يقرأ القرآن»[١].

وقد كانت حجّة الثّوري في تركه الجهاد، أنه بحسب زعمه، يؤخّر في أداء الفرائض[٢]، غير أن هذه الأسباب جميعها؛ لم تُنجِ سفيان من ألسن النقّاد وأصحاب الغيرة على الجهاد، وكان في طليعة هؤلاء الزاهد السائح إبراهيم بن أدهم[٣]، الذي كان يعيب عليه ترك الغزو ويقول: «هذا الأوزاعي[٤] يغزو وهو أسنّ منه»[٥].

وإلى جانب تمسّك الفُضَيل بمواقف الثّوري لتبرير موقفه الشخصي من قضية الجهاد، نجده في مناسبة أخرى يُعزي تقاعسه إلى استخارة الله عزّ وجل، لأنه بحسب رأيه لا يحقّ للمرء أن يتخيّر لنفسه أو أن يفرض خياره على الله، مع العلم أن مواقف القرآن الكريم صريحة إزاء قضية الجهاد. وبشهادة عبد الصمد بن يزيد كان الفُضَيل يقول: «استخيروا الله ولا تخيروا عليه، فكم من

---

(١) الحلية، ج ٧، ص ٦٥.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٦٩.
(٣) هو أبو إسحٰق البلخي، وثّقه النسائي وغيره وكان أحد السادات، يقال: إنه بلغ رتبة الاجتهاد، وتوفي سنة ١٦٢/ ٧٧٩. (شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٥٥).
(٤) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه روى عن التابعين، وكان رأسًا في العلم والعمل، وهو عالِم الأمة في زمانه توفي سنة ١٥٧/ ٧٧٤. (شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٤١).
(٥) أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٦٩.

عبد تخيّر لنفسه أمرًا كان هلاكه فيه! أما رأيتموه سأل ربّه طَرَسُوسَ[١]، فأُعطِيَها، فأُسِرَ فصار نصرانيًا»[٢].

وفي اعتقادي أن في هذه المقولة تحبيطًا للعزائم، وردعًا واضحًا عن القيام بواجب الجهاد، الذي يدعو إليه الله عزّ وجل في كتابه العزيز. فكأني بالفُضَيل يخوّف ويحبط عزائم المجاهدين، ويحذّرهم من مغبّة الوقوع في الأسْر الذي ينتج عنه الخضوع للأعداء الذين يفرضون على المجاهدين المذهب الذي هم عليه.

ويحضرنا هنا موقف الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك[٣]، الذي كان إلى جانب علمه وفقهه وزهده وورعه، من الأبطال المجاهدين، بل هو وبشهادة شمس الدين الذهبي: «فخر المجاهدين»[٤]، فكان وهو في المرابطة، لا ينسى أن يُعلّم المجاهدين أصول الشجاعة إلى جانب تعليمهم الحديث الشريف[٥].

---

(١) طرسوس: مدينة بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، وكان الزهّاد والصالحون يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين، استولى عليها نقفور ملك الروم سنة ٣٥٤/ ٩٦٥ وتنصّر وقتئذ بعض المسلمين وقصد بعضهم بلاد الإسلام، وأقام نفر يسير على الجزية (معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١ـ ٣٣).

(٢) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٣) انظر كتابنا: عبد الله بن المبارك، ص ٩٨ وما بعدها.

(٤) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٥٣.

(٥) الجرح والتعديل، ج ١، ص ٢٧٨.

وفوق ذلك؛ كان ابن المبارك يحثّ الناس على الجهاد، ويُذَكّر العلماء بأن العبادة تحت ظلال السيوف أفضل من العبادة في محراب المسجد حيث الأمن والأمان، وقد تجلّى ذلك في قصيدته التي بعث بها من الغزو مع محمد بن إبراهيم إلى صاحبه الفُضَيل بن عِياض والتي يقول فيها:

يا عابِد الحرمين لو أبصَرتنا
لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ
مَن كان يخضبُ جيده بدُمُوعه
فنحورُنا بدمائنا تتخضّبُ
أو كان يُتعب خيله في باطلٍ
فخيولُنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحن عبيرُنا
رهجُ السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا مقال نبينا
قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكذبُ
لا يستوي غبارُ خيل الله
أنف امرىء ودُخانُ نارٍ تلهبُ
هذا كتابُ الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميتٍ لا يكذب

فلما قرأ الفُضَيل هذه الأبيات ذرفت عيناه ثم قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح»[1]. ثم قال لمَن جاءه بالرسالة: «اكتب

(١) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٠٣ـ ١٠٤.

هذا الحديث جزاء لحمل الكتاب»، فقال: «حدّثني المنصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رجلاً قال لرسول الله (ﷺ): دلّني على عمل أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله»، فقال النبي (ﷺ): «هل تستطيع أن تصوم لا تفطر، وتصلّي ولا تفتر؟» فقال: يا رسول الله، إني أضعف عن ذلك، فقال عليه السلام: «فوالذي نفسي بيده لو طُوِّفت ذلك لما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهدين ليستنّ في طوله، فَيُكتَب لصاحبه بذلك الحسنات»[1].

في نهاية هذه القضية؛ نجد من الوفاء للفُضَيل أن نقول: إذا كان لدى الرجل ما يبرّر موقفه من الجهاد فهذا لا يعني أنه كان متخاذلاً إزاء ما فرضه الله عزّ وجل، وإنما قد يكون منظر السلاح أو حياة الفروسية تُعيده، ولو بالذاكرة، إلى حياة الضلال التي مرّ فيها سابقًا، وربما يكون عامل السِنّ قد حالَ دون قيامه بذلك الدور النبيل.

على كل حال؛ فإن الفُضَيل كان يُذَكِّر دائمًا بأن هناك أمورًا أخرى لا تقلّ أهمية عن الواجبات الدينية، فقال: «لا حجّ ولا جهاد ولا رباط أشدّ من حبس اللسان...»[2] فالتحلّي بالصفات

---

(١) ذيل الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٣٣، والحديث أخرجه البخاري، في كتاب الجهاد والسِّيرُ باب ١ و٢؛ والترمذي، في كتاب فضائل الجهاد، باب ١٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ١١٠. (ط .بولاق ١٢٩٠).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٠.

الحميدة لا تقلّ، بشُرعة الفُضَيل، عن سائر الواجبات المفروضة. انطلاقًا من ذلك وجدت من المناسب أن أُخصّص جانبًا لدراسة النواحي الخُلُقية، لعلّها تساعد في تسليط الأضواء على جوانب غامضة من شخصية الفُضَيل الرجل المجاهد اجتماعيًا.

٥ـ عنايته بالقرآن الكريم:

لا شك؛ أن الفُضَيل كان مهتمًّا بالقرآن الكريم إلى حدٍّ كبير، بخاصّة بعد أن اختار العُزلة، وترك الجهاد، وتفرّغ للعبادة، فكان لا بدّ له، والحالة هذه، من أن ينتقي أنيسًا له، يملأ عليه وحدته ويخفّف من كربه، ولا سيما حينما كانت تعتريه حالة صحوة الضمير والألم النفسي، فكان القرآن هو بغيته، فاختلى به وقال: «كفى بالقرآن مؤنسًا»(١).

والمُلاحَظ؛ أن عناية الفُضَيل بالقرآن لم تقتصر على تلاوته له وترتيله، وإنما تعدّى ذلك إلى تفسيره وشرح غوامضه ليقرّبه إلى قلوب الناس، كما لم يفته أيضًا، التعرّض للقرّاء الذين يجب أن يكونوا على مستوًى لائق من حيث الأخلاق العامّة، وحُسْن التعامل مع الآخرين، بذلك يكونوا أهلاً لحمل رسالة القرآن ونشرها بين الناس.

أما بالنسبة لتلاوته له، فقال ابن كثير في تاريخه: «كان حسن التلاوة»(٢)، وقال صاحبه إسحٰق بن إبراهيم: «...كانت

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٠.
(٢) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.

قراءتُه حزينة، شهيَّة، بطيئة مترسّلة، كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مرّ بآية فيها ذِكرُ الجنة يُردّد فيها، وسأل»[1]، وحينما سُئِل عن ذلك، قال: «قرّاء الرحمن أهل ذبول وخشوع، وقرّاء الأمراء أهل كبر وازدراء للناس»[2]، فهو وفق هذا التصنيف يُعَدّ من قرّاء الرحمن الذين يتواصلون بتلاوتهم وخشوعهم ورجائهم مع الله عزّ وجل.

بالإضافة إلى ذلك، يرى الفُضَيل أن الذي يمنّ الله عليه بنعمة القرآن يستحوذ على علم السّلَف والخَلَف، فقال: «مَن أُعطِيَ فهم القرآن، أُعطِيَ علم الأوّلين والآخرين»[3].

ومقابل هذه النعمة التي أنعمها الله على عباده الصالحين، فإنه يطالبهم بالقيام بواجباتهم كاملة، لأن حسابهم سوف يكون على مستوى الرسالة التي أُنيطت بهم. فقال: «. . .مَن قرأ القرآن سُئِلَ يوم القيامة، كما تُسأَل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تبليغ الرسالة، فإنه وارثهم»[4].

وقد أحسن الفُضَيل الظن بحامِلِي القرآن، لأنهم تولّوا أمانة عظيمة، لا يفوز بها إلاّ مَن هم أهل لها، فحامِل القرآن يجب أن

(١) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٢) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.
(٣) الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(٤) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦. وكان ابن عُيينة يقول: «مَن قرأ القرآن يسأل عمّا يُسأل عنه الأنبياء (ع) إلاّ تبليغ الرسالة» (الحلية، ج ٧، ص ٢٨١).

يكون مميّزًا بينَ الخلق، فهو أنقى من غيره، هكذا يفترض، فلا ينطبق عليه ما ينطبق على الآخرين من لهو وسَمَر، ويترفّع عن ذُلّ السؤال والحاجة، ويبقى عزيز النفس كريمًا أبيًّا، ويغدو محطّ آمال الخلق.

سمعه أحد إخوانه يقول: «حامل القرآن؛ حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع مَن يلغو، ولا أن يلهو مع مَن يلهو، ولا يسهر مع مَن يسهر»[1]، «ولا ينبغي لحامِل القرآن أن يكون له حاجة عند أحد من الأمراء والأغنياء، إنما ينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه هو»[2].

غير أن فريقًا من القرّاء سلكوا طريقًا مُغايِرًا لما رسمه لهم الفُضَيل، مما اضطره للوقوف في وجههم بصلابة، وأخذ يحذّرهم من مغبّة التهوّر والانزلاق في هُوّة الآفات الاجتماعية، كالغيبة والزهوّ والتكبّر، فقال: «لكل شيء ديباجة، وديباجة القرّاء ترك الغيبة»[3]، وقال أيضًا: «آفةُ القرّاء العُجبُ[4]»[5].

من جهة أخرى؛ أخذ الفُضَيل يدعو الناس إلى أخذ الحيطة من القرّاء لأن الغيبة مستأصلة فيهم، وهم يذكرون الخلق بما ليس فيهم، وبالتالي لا يتورّعون عن شهادة الزّور، فقال ناصحًا

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٢.
(٢) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥.
(٤) العُجب: الاسم لمَن يعجب بنفسه وبرأيه (مختار الصحاح، ص ٤١٣).
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٢.

ومحذّرًا: «إياك ومُجالسة القرّاء، فإن الغيبة فاكهتهم»[١]، وقال أيضًا: «تباعد من القرّاء فإنهم إن أحَبُّوك، مدحوك بما ليس فيك؛ وإن أبغضوك، شهدوا عليك زورًا وقُبِلَ منهم»[٢].

وإلى جانب تخاذل القرّاء؛ لاحظ الفُضَيل انشغال الناس «بعلم الحديث» الأمر الذي ينعكس سلبًا على علم القرآن، لذا؛ أخذ يُنفّرْ الناس من جمع الحديث الشريف ويحثّهم للتقرّب من كلام الله العزيز فقال: «مَن فهم القرآن استغنى عن كتابة الحديث»[٣]، لأنه في يقينه؛ مَن أراد علوّ الإسناد، والبُعْد عن هموم وشجون «علم الجرح والتعديل» فليرجع إلى القرآن الكريم، وقد عبّر الفُضَيل عن وجهة نظره خلال مجالسته لبعض إخوانه.

قال يحيىٰ بن أيوب: «دخلت مع زافر بن سليمان على الفُضَيل بن عِياض، فإذا معه شيخٌ، فدخل زافر، وأقعدني على الباب، قال زافر: فجعل الفُضَيلُ ينظر إليَّ ثم قال: هؤلاء المحدِّثون يُعجبهم قُرْبُ الإسناد، ألا أُخبرك بإسناد لا شكَّ فيه، رسول الله عن جبريل، عن الله: **﴿نارًا وَقُودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾**[٤]. فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، ثم غُشِيَ عليه، وعلى الشيخ، وجعل زافر ينظر إليهما، ثم خرج الفُضَيل، وقُمنا، والشيخ مَغشِيٌّ عليه»[٥].

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٤٩؛ قابل: طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.
(٢) طبقات السلمي، ص ١١؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص٤٤١.
(٣) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.
(٤) سورة التحريم، آية: ٦.
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨ـ ٤٣٩.

فهذه الحادثة إلى جانب ما تؤدّيه من دور فاعل بالنسبة لتفضيل القرآن على الحديث، فهي تُظهِر مدى تأثير الآيات الكريمة في مُعاصِرِي الفُضَيل، الذي كان يتأثّر ويؤثّر في الآخرين من خلال سماعه أو تلاوته لكلام الله عزّ وجل. قال إبراهيم بن الأشعث: «. . .كان إذا سمع القرآن؛ ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه مَن بحضرته»[(١)].

وبما أننا بصدد الحديث عن تأثير القرآن في الفُضَيل وأصحابه، فلدينا رواية تبيّن مدى انسجامه بالآيات الكريمة، عن ذلك تحدّث إبراهيم بن الأشعث، فقال:

«سمعت الفُضَيل يقول: وهو يقرأ سورة محمد، ويبكي ويردّد هذه الآية **﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ متَى نَعْلَم الْمُجاهِدينَ مِنكُمْ والْصابِرِينَ ونَبْلُوا أَخْبَارَكُم﴾**[(٢)]، وجعل يقول: ونبلوَ أخباركم! ويردّد ويقول: تبلوَ أخبارنا! إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا وهتكتَ أستارنا! إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذّبتنا! ويبكي»[(٣)].

وعن تأثير القرآن في الفُضَيل أيضًا؛ تحدّث سعد بن زنبور[(٤)]، فقال: «كنّا على باب الفُضَيل بن عِياض فاستأذنّا عليه

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٤؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦.
(٢) سورة محمد، آية: ٣١.
(٣) المقدسي، كتاب التوّابين، ص ٢٠٨.
(٤) وثّقه يحيىٰ بن معين واعترف العلماء بسعة حفظه، كان يحدّث عن الفُضَيل وقد مات ببغداد سنة ٢٣٠/ ٨٤٤. (تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٢٧ـ ١٢٨).

فلم يُؤذَن لنا فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذّن وكان صَيِّتًا[1] فقلنا له اقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾[2]، ورفع بها صوته. فأشرف علينا الفُضَيل وقد بكى حتى بلّ لحيته بالدموع ومعه خرقة ينشّف بها الدموع من عينيه وأنشأ يقول:

«بلغتُ الثمانين أو جُزتها
فماذا أؤمّل أو أنتظر؟
أتى لي ثمانونَ من مولدي
وبعد الثمانين ما ينتظر
علّتني السنون فأبلينني

. . . .

قال: ثم خنقته العَبْرة. وكان معنا علي بن خشرم[3]، فأتمّه لنا فقال:

علّتني السنون فأبلينني
فرقّت عظامي وكلَّ البصر[4]

---

(١) صَيِّتًا: شديد الصوت. (مختار الصحاح، ص ٣٧٣).
(٢) سورة التكاثر، آية: ١.
(٣) علي بن خشرم؛ لم أقع له على ترجمة في طبقات الشعراء لابن سلاّم الجُمحي، (ط. بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر، ١٩٦٩)؛ وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ط. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥)؛ وفي كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤).
(٤) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٩٩.

ولم يكن الفُضَيل وحده الذي يتأثر بالقرآن الكريم، وإنما انتقل إلى ابنه عليّ الذي يُعَدُّ من شهداء القرآن، فحدّث يعقوب بن يوسف قال:

«كان الفُضَيل بن عِياض إذا علم أن ابنه عليًا خلفه - يعني في الصلاة - مرّ ولم يقفْ ولم يخوّفْ؛ وإذا علم أنه ليس خلفه تنوّق في القرآن وحزَّن وخوَّف. فظن يومًا أنه ليس خلفه، فأتى على ذكر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وكُنَّا قومًا ضالِّينَ﴾[1]. قال: فخرّ عليّ مغشيًا عليه. فلما علمَ أنه خلفه وأنه قد سقط، تجوّز في القراءة. فذهبوا إلى أُمه فقالوا: أدركيه. فجاءت فرشّت عليه الماء، فأفاق. فقالت لفُضَيل: أنت قاتل هذا الغلام، فمكث ما شاء الله. فظن أنه ليس خلفه، فقرأ: ﴿وبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[2]، فخرَّ ميّتًا، وتجوّز أبوه في القراءة، وأُتيت أُمُّه فقيل لها: أدركيه. فجاءت فرشّت عليه ماءً، فإذا هو ميّت»[3].

ورُوِيَ من طرف آخر؛ أن الآية التي مات فيها عليّ هي من سورة الأنعام، فلما سمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم قَالَ أليسَ هَذَا بِالحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنا﴾[4]، فخرّ عليّ، وشهق شهقة خرجت روحه معها[5].

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ١٠٦.

(٢) سورة الزّمر، آية: ٤٧.

(٣) كتاب التوّابين، ص ٢٠٩.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٠.

(٥) طبقات الأولياء، ص ٢٧١؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٣. وكان ذلك سنة ١٧٤/ ٧٩١، قبل أن يبلغ الكهولة.

أ ـ علمه بتفسير القرآن:

لو تركنا النواحي الإيمانية والعاطفية التي اختصّها الفُضَيل للقرآن الكريم، وانتقلنا إلى الناحية العلمية؛ نجده مهتمًا أيضًا بتفسير معاني آياته وسَبْر أغوار مضامينها، ولكن من المؤسف فإن المصادر لم تذكر إلاّ القليل منها.

فمن سورة البقرة فسّر الآيتين التاليتين:

حدّث داود بن مهران قال: سمعت فُضَيلاً يقول في قوله تعالى: **﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾**[1]، قال: «أوفوا بما أمرتكم أوفِ لكم بما دعوتكم»[2].

وفي قوله تعالى: **﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾**[3] قال: «الأوصال التي كانت في الدنيا»[4].

وعن تفسيره لآية من سورة النساء، تحدّث إبراهيم بن الأشعث، فقال: سمعت فُضَيلاً يقول في قوله تعالى: **﴿ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُم إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾**[5]، قال: «لا تغفلوا عن أنفسكم فإن مَن غفل عن نفسه فقد قتلها»[6].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٠.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٦٦.
(٤) النبلاء، ج ٨، ص ٤٤١.
(٥) سورة النساء، آية: ٢٩.
(٦) الحلية، ج ٨، ص ١١١.

ومن سورة هود، في قوله تعالى: ﴿لِيبلُوكم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلا﴾[1]، قال: «أخلصه وأصوبه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل حتى يكون خالصًا والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السُّنّة»[2].

ومن سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿إنَّ في هَذَا لَبلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[3]، قال: «الذين يحافظون على الصلوات الخمس»[4].

وسمعه العلاء العطّار يفسّر قوله تعالى: ﴿إنّا أخلصْناهُم بِخالِصَةٍ ذكرَى الدار﴾[5]، فقال: «أخلصوا بهم الآخرة»[6].

ب ـ إجاباته ونصائحه من وحي القرآن:

وإلى جانب تفاسير الفُضَيل لبعض آيات القرآن الكريم، فقد كان له إجابات بليغة ونصائح رائدة، وهي مستقاة من وحي الآيات القرآنية وهذا دليل آخر على تعمّقه في كتاب الله وبلاغته فيه.

حدّث عبد الرحمن بن حيّان المصري قال[7]: قيل للفُضَيل بن عِياض: «يا أبا علي ما بال الميت ينزع نفسه وهو

---

(١) سورة هود، آية: ١٧.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٥؛ قابل: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٦.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٣؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٧.
(٥) سورة ص، آية: ٤٦.
(٦) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.
(٧) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١١١.

ساكت، وابن آدم يضطرب من القرصة؟ قال: لأن الملائكة توثّقه». ثم قرأ: ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِطُونَ**﴾[1].

وفي مناسبة أخرى سُئِلَ الفُضَيل عن الزهد، فقال[2]: «هو حرفان في كتاب الله عزّ وجل»: ﴿**لكيلا تأسَوْا على ما فَاتكُمْ ولا تَفْرَحوا بما أتاكمُ**﴾[3].

وعن تفاسيره الممزوجة بالموعظة الحسنة والنصيحة الخالصة لوجه الله، حدّث إسحٰق بن إبراهيم قال[4]: رأى فُضَيل رجلاً يضحك، فقال: «ألا أُحدّثك حديثًا حسنًا»، قال: «بلى»، قال: ﴿**لاَ تَفْرَحْ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ**﴾[5].

وفي مجلس آخر قال الفُضَيل لرجل: «كم أتت عليك؟ قال: ستّون سنة، قال: فأنت منذ ستّين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ، فقال الرجل: يا أبا علي ﴿**إنّا لله وإنّا إلَيهِ راجعون**﴾[6]، قال له الفُضَيل؛ تعلم ما تقول؟ قال الرجل: قلت: ﴿**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**﴾[7]. قال الفُضَيل: تعلم ما تفسيره؟ قال الرجل: فسّره لنا يا أبا علي».

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦١.
(٢) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢١٩ـ ٢٢٠.
(٣) سورة الحديد، آية: ٢٣.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠٨.
(٥) سورة القصص، آية: ٧٦.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٦.
(٧) المكان نفسه.

قال الفُضَيل: «قولك إنّا لله، تقول: أنا لله عبد وأنا إلى الله راجع، فمَن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع، فليعلم بأنه موقوف ومَن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسؤول، ومَن علم أنه مسؤول فليعدّ للسؤال جوابًا. فقال الرجل: فما الحلية؟ قال: تستره، قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي، يغفر لك ما مضى وما بقي، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي»[1].

ومن مواعظه المستوحاة أيضًا من القرآن الكريم، ما حدّث به الفيض بن إسحٰق، فقال[2]: سمعت فضيلاً يقول في مجلسه: «لم ترَ أقرّ عينًا ممّن خرج من شدّة إلى رخاء، ويقدم على خير مقدم، وينزل على خير منزل، فإذا رأى ما يرى من الكرامة يقول: لو علمت ما سألتك إلاّ الموت، ولم ترَ يوم القيامة أقرّ عينًا ممّن خرج من الضيق والشدّة والجوع والعطش، ثم نزل على الجنة يقال: اللّهمّ ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تعمَلُونَ**﴾[3]، ولم ترَ يومئذٍ أسخن عينًا ممّن خرج من الروح والسّعة والرخاء والنعمة، ثم نزل على النار يقول الله: ﴿**فَادخُلُوا أبوابَ جَهَنمَ خَالِدينَ فيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ**﴾[4].

وبعد؛ فإن هذه التفسيرات والإجابات والشروحات على قلّتها؛ تُظهِر أهمية الفُضَيل في علم القرآن، وتبيّن بالتالي، أنه كان

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١١٣.
(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٧.
(٣) سورة النحل، آية: ٣٢.
(٤) السورة نفسها، آية: ٢٩.

على دراية وخِبرة بكلام الله، بحيث إنه لم يترك مناسبة اجتماعية أو دينية، إلاّ واستشهد فيها بالآيات الكريمة التي تناسبها، الأمر الذي طبع حديثه بطابع الجدّيّة وأظهر مدى تمسّكه بالقضايا الإيمانية، بعد أن توّج ذلك كله ببلاغة التنزيل العزيز.

٦ـ موقفه من أهل البِدَع:

بقدر ما كان الفُضَيل متمسّكًا بمبادىء الشرع الحنيف، بقدر ما كان متصلّبًا إزاء أهل البِدَع الذين يثلمون عُرَى الإسلام؛ بما لديهم من مبادىء هدّامة لا تخدم الإنسانية من قريب أو بعيد، وإنما كلّ ما يبغونه هو فلسفة الأمور بما يوافق هواهم ويخدم مصالحهم الخاصّة. لهذا؛ كان الفُضَيل لا يغمض له جفن قبل أن يفضح هؤلاء المتطفّلين الفاسدين، لأنه بعمله هذا، يذبّ عن حُرمة الدين ويجمع شمل الأمة، التي هي بأمسّ الحاجة إلى توحيد صفوفها في وقت تعدّدت فيه المذاهب وكثرت الشِّيَع وضاعت كلمة الحق، فكان يسير في هذا الدرب وفق سياسة السَّلَف الصالح، فقال: «أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة وهم ينهون عن أصحاب البدع»[1].

انطلاقًا من هذا المبدأ؛ أعلن الفُضَيل بصراحة متناهية عن موقفه من المبتدعة، فدعى إلى عدم مساعدتهم أو الأخذ بيدهم أو التعامل معهم، لأن في ذلك مخالفة واضحة لأمور الشرع، فبشهادة

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.

عبد الصمد بن يزيد أنه كان يقول: «مَن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»(١)، وقال: «مَن أتاه رجل فشاوره فقصر عمله فدلّه على مبتدع، فقد غشّ الإسلام»(٢).

وقد حسب الفُضَيل أن البدعة من علامات البلاء الذي لا يردّ ولا يبدل، فقال: «من علامة البلاء أن يكون الرجل صاحب بدعة»(٣). لهذا أخذ يدعو إلى عدم مشاورة أهل البدع أو مجالستهم، وحذّر من محبتهم أو النظر إليهم خشية أن يمقتنا الله على ذلك، فقال: «مَن جلس مع صاحب بدْعَة لم يُعط الحكمة»(٤). وقال: «صاحب بِدعة لا تأمنه على دينك ولا تشاوره في أمرك، ولا تجلس إليه، فمَن جلس إليه أورثه الله عزّ وجل العمى»(٥).

وفي مجالستهم قال أيضًا: «إن الله عزّ وجل وملائكته يطلبون حلق الذكر، فانظر مع مَن يكون مجلسك، لا يكون مع صاحب بدعة، فإن الله تعالى لا ينظر إليهم»(٦)، ويحذّر أيضًا ممّن يجالس أصحاب البِدَع فيقول: «مَن جلس مع صاحب بدعة

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٣.
(٢) المكان نفسه.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ١٠٨.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٠؛ طبقات الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٠٣.
(٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٤.

فاحذره»[١]، لأنه من: «علامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعة»[٢].

وفي محبتهم التي تحبط الأعمال، قال: «مَن أحبَّ صاحبَ بدعة، أحبط الله عمله، وخرج نور الإسلام من قلبه»[٣]، وبالمقابل فإن بغضهم يقرّب العبد إلى الله وتُغفَر خطاياه وذنوبه، فقال: «إذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة، رجوت أن يغفر الله له وإن قلّ عمله، فإني أرجو له، لأن صاحب السُّنّة يعرض كل خير، وصاحب البدعة لا يرتفع له إلى الله عمل وإن كثر عمله»[٤].

وأما بالنسبة للنظر إليهم، الذي يعمي البصر والبصيرة، فيقول: «نظرُ المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب، ونظرُ الرجل إلى صاحب بدعة يورث العمى»[٥]، ولكي يأمَن المرء شرّهم ويرتاح منهم، ما عليه إلاّ أن لا يراهم ولا يرونه، فقال: «إذا رأيت مبتدعًا في طريق؛ فخذ في طريق آخر»[٦].

بعد ذلك؛ انتقل الفُضَيل من الدور النظري؛ بما فيه من مواعظ وإرشادات لإخوانه، إلى الدور العملي، وضرب لهم أمثلة عن نفسه في كيفية التعامل مع هذه الفئة المتهتكة، داعيًا الناس إلى التأسّي به والسير وفق نهجه.

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٣.
(٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٣ـ ١٠٤.
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥.
(٦) الحلية، ج ٨، ص ١٠٣.

فقال عن نفسه: «إني أحبّ مَن أحبّهم الله، وهم الذين يسلم منهم أصحاب محمد (ﷺ)، وأبغض مَن أبغضهم الله وهم أصحاب الأهواء والبِدَع»[١]، وعن تعامله معهم قال: «لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحبّ إليّ من أن آكل عند صاحب بدعة، فإني إذا أكلت عندهما لا يُقتدى بي، وإذا أكلت عند صاحب بدعة اقتدى بي الناس»[٢]، وقال أيضًا: «أحبّ أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد»[٣].

ولعلّ تلك المبادىء قد سادت بين الناس، فراح البعض منهم يعرض على الفُضَيل موقفه من أهل البِدَع والفاسقين، قال عبد الصمد بن يزيد سمعت رجلاً قال للفُضَيل: «مَن زوّج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها»[٤].

وقبل أن نُنهي هذا الجانب لا بدّ من الإشارة إلى أن تمسّك الفُضَيل بالعبادة وتفانيه وإخلاصه في تطبيق شعائرها، وبالتالي موقفه من أهل البِدَع ومحاربته لأباطيلهم وتُرّهاتهم، تحثّنا لتحديد عقيدته التي ظلّ مخلصًا لها بعد توبته الصادقة.

وبالعودة إلى المصادر؛ تبيّن لي أنها لم تُفصِح عن هويّته، وكلّ ما ذكرته يُظهِر أنه كان مُحتاطًا من الانزلاق في مخاطر الطائفية، فهو من دُعاة التقارب والتآلف بين أهل المذاهب، وأول

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٣.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المكان نفسه.

ما يُطالعنا في هذا الصدد اعتقاده الحَسَن بأهل بيت الرسول (ﷺ)، فعن مؤمل بن إسماعيل أنه سمعه يقول: «إذا نظرت إلى رجل من أصحاب أهل البيت[1] كأني نظرت إلى رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ)»[2].

وإلى جانب وفائه لرسول الله (ﷺ) ولأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، فقد كان وفيًّا للصحابة، وخصوصًا للخلفاء الأربعة، وأكّد هذا الأمر ابن أبي خيثمة، فقال: ذكر عند الفُضَيل الصحابة، فقال: «اتّبعوا فقد كفيتم أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعليّ بن أبي طالب»[3]، وهو أيضًا يدعو إلى الإقلاع عن شتم السّلَف لأنهم البقيّة الصالحة من حَمَلَة الرسالة[4].

إن هذه المواقف وغيرها تنفي ما أشاعه قطبة بن العلاء عن الفُضَيل، فقد اتّهمه بأنه يروي أحاديث فيها ازدراء وتهجّم على عثمان بن عفّان[5]. ومما يعزّز موقف الفُضَيل في هذه القضية؛ أن بعض المؤرّخين والمحدّثين قد دحضوا حجّة قطبة[6].

---

(١) ورد في التنزيل العزيز: ﴿**إنما يُريدُ اللّهُ ليُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت**﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٣٣]، «إنما يريد أهل بيت النبي (ﷺ)، أزواجه وبنته فاطمة وعليًّا» لسان العرب، (مادة بيت).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٦.

(٣) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦؛ شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧.

(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.

(٥) ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٣٦١.

(٦) من هؤلاء: شمس الدين الذهبي. انظر: (شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧).

وبشهادة أصحابه ومُعاصِرِيه؛ فقد كان يدعو بإخلاص إلى الإسلام، كما كان يشجّع على اعتماد نهج الرسول (ﷺ)، فهو يعتبر أن التمسّك بذلك؛ من شأنه أن يساهم في إحياء العباد وإعمار البلاد، فقال: «إن لله عبادًا يحيي بهم العباد والبلاد، وهم أصحاب سُنّة»[1]، وقال ناصحًا أحد إخوانه: «اسلك الحياة الطيبة؛ الإسلام والسُّنّة»[2].

فالفُضَيل يحبّ الرسول (ﷺ) وأهل بيته، كما يحبّ الصحابة دون تميّز فيما بينهم، وهو يدعو إلى اعتماد سيرة النبي (ﷺ)، لتكون نبراسًا للمؤمنين في حياتهم ومشعلاً يهتدون بهديه.

٧ـ زهد الفُضَيل وورعه:

إلى جانب عبادة الفُضَيل وتقواه وعنايته بالقرآن الكريم، فقد كان زاهدًا ورعًا من الرعيل الأول، وهذه حقيقة ثابتة لم يختلف فيها المؤرّخون وأئمة الحديث، فذكر الإمام النووي: أن الأئمة المعاصرين «أجمعوا على صلاحه وزهده وورعه»[3]. وقال شمس الدين الذهبي: هو «زاهد العصر»[4] من غير نزاع.

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٩.

(٣) تهذيب النووي، ص ٥٠٣.

(٤) دول الإسلام، ص ١٠٦.

أ ـ زهده؛ أقوال ومواقف:

لا ريب أنه كان للفُضَيل رأيه الخاصّ في الزهد، وقد توصّل إلى ذلك من خلال مُعاناته الشخصية وتجاربه في الحياة، فلما قيل له ما الزهد في الدنيا؟ قال: «القنع وهو الغنى»(١)، ويعني بذلك؛ غنى النفس وترفّعها عن المادة، ولما سُئِلَ عن أصل الزهد؟ قال: «أصلُ الزُّهد الرِّضا عن الله تعالى»(٢)، بما قسم لنا وما حجب عنّا، وقال: «زهادة العبد في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة»(٣).

ويرى الفُضَيل؛ إن حبّ الدنيا مفتاح الشرّ، والزهد فيها مفتاح الخير، فقال: «جُعِل الشرّ كله في بيت، وجعل مِفْتاحُه الرّغْبَةَ في الدنيا، وجعل الخيرُ كُلُّه في بيت، وجُعِل مفتاحه الزهد في الدنيا»(٤)، ثم خوّف الناس من الدنيا بقوله: «ليس من عبد أُعطي شيئًا من الدنيا إلاّ كان نقصانًا له في الدرجات في الجنة وإن كان على الله كريمًا»(٥)، وقال: «أتى الناس من خصلتين، حبّ الدنيا، وطول الأمل»(٦).

بعد ذلك؛ اخذ يُنفّر الناس من الدنيا مستشهدًا بسيرة الأنبياء عليهم السلام فقال: «ليست الدنيا دار إقامة، وإنما آدم أُهبط إليها

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩١؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٢) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٥٧؛ طبقات السلمي، ص ١٠.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٨٩.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٣؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٨٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٥.

عقوبة»[1]، ألا ترى كيف يَزْويها عنه، ويمرِّرها عليه بالعُرى مرة، وبالجوع مرة، وبالحاجة مرة، كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها، تسقيه مرة صبرًا[2]، ومرة حُضَضًا[3]، وإنما يريد بذلك ما هو خير له»[4].

ولما انتهى الفُضَيل من موقفه العامّ؛ انتقل للحديث عن زهده الشخصي، فقال: «علمتُ أن الدنيا تفارقني اضطرارًا، ففارقتها اختيارًا»[5]. وقال أيضًا: «لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ ولا أُحاسَب بها، لكنت أتقذرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه»[6].

وبشهادة خادمه إبراهيم بن الأشعث، فقد كان يذكر الزهد في دعائه، فسمعه يناجي ربّه ويرجوه أن يزهده في الدنيا، ويقول: «اللّهمَّ زهّدنا في الدنيا، فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا، وجميع طلباتنا ونجاح حاجاتنا»[7].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٢) الصبر: عُصارة شجر.
(٣) الحُضَضَ: دواء يعقد من أبوال الإبل، ويقال: من صمغ من نحو الصنوبر والمُرّ له ثمرة كالفلفل. لسان العرب، (مادة حضض).
(٤) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٥٩؛ العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٠٣؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤ـ ٤٣٥.
(٥) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.
(٦) الرسالة القشيرية، ص ٩، مقابل: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٥٩؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨؛ البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٩.
(٧) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩.

بعد ذلك؛ قام الفُضَيل بدور المُصلِح الديني والاجتماعي، فأخذ يبيّن لإخوانه مدى التقارب بين الزهد والإيمان الذي هو الطريق الصحيح إلى التقوى، فسمعه حسين بن زياد المروزي يقول: «حرامٌ على قلوبكم أن تُصيب حلاوةَ الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا»[1]، ثم ذكر المؤشّر الذي يبيّن للمرء سلامة قلبه من حبّ الدنيا، فقال: «لا يَسْلَم لك قلبُك حتى لا تبالي مَنْ أكل الدنيا»[2]. ثم دعا إلى الصدق في التعامل مع الله عزّ وجل ومع أنفسنا أيضًا، فقال: «لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به، أحسن من أن يطلب بأحسن ما تُطلب به الآخر»[3].

وفوق ذلك؛ فقد كان الفُضَيل يقدّر هول الصراع الذي ينشأ بين العبد وشهواته لأن غريزته قد تتحكّم بتصرفاته في أحيانٍ كثيرة، فكان في أقواله واقعيًا إلى حدٍّ كبير، فسمعه الفيض بن إسحٰق يقول: «ليس في الأرض شيء أشدّ من ترك الشهوات»[4]، وكان يحدّث عن حُصَين بن بكر بن عبد الله فيقول: «كان الرجل عبد بطنه، عبد شهوته، عبد زوجته، لا بقليل يقنع، ولا من كثير يشبع، يجمع لمَن لا يحمده، ويقوم على مَن لا يقدره»[5].

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٣.
(٣) الحلية، ج ٨، ص ٩٨.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المكان نفسه.

وفي يقين الفُضَيل؛ أن كل هذه الأمور ليست من الكمال في شيء، فقال: «لن يكمُلَ عبدٌ حتى يؤثِر دينه على شهوته، ولن يهلك عبدٌ حتى يؤثِر شهوته على دينه»[1].

وأخيرًا يقول بحسرة وألم: «ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة ثم لا ترى لها عاشقًا»[2].

والمؤسف؛ أن المصادر لم تمدّنا بمعلومات عن زهد الفُضَيل في المآكل والمشارب والملابس والعمارة، وكلّ ما لدينا من معلومات مفادها أنه كان يقول في الأكل: «خَصلتان تُقَسِّيان القلب: كثرة الكلام، وكثرةُ الأكل»[3]، وهذا يعني أنه كان مقصرًا أو معتدلاً في طعامه، أما عن أنواع المآكل التي كان يعتمد عليها ومقدار وجباته فهذه الأمور لم نعرف عنها قليلاً أو كثيرًا، وكلّ الذي نعرفه أنه لم يكن يسمح لنفسه أن تتلذّذ بالطعام.

قال سلمة بن غفار: «قَدِمَ عليه ابن أخيه، فاتخذ له خبيصًا[4] فقال لعمّه: يا عمّ كُلْ معي، قال: يا ابن أخي إن الثكلى لا تجد طعم ما تأكل!»[5].

وذكر الزمخشري في موضوع الطعام، أن الفُضَيل قال يومًا لأصحابه: ما تقولون في رجل في كمّه ثمر ثم يقعد على رأس

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٤.
(٣) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٢.
(٤) الخبيص: الحلواء المخبوصة. لسان العرب، (مادة خبص).
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٩٣.

الكنيف[1] فيطرحه فيه ثمرة ثمرة؟ قالوا: هو مجنون، قال: فالذي يطرحه في بطنه حتى يحشوه فهو أجنّ منه، فإن هذا الكنيف يُملأ من هذا الكنيف»[2] ولعلّه هو الذي كان يقوم بهذا العمل لزهده في الطعام.

وأما بالنسبة لموقفه من الزواج؛ فالواضح أنه تزوّج وأنجب، فذكرت المصادر أسماء ثلاثة من أبنائه، الأكبر وهو علي[3]، وآخر وهو محمد[4]، والأصغر ويُعرَف بأبي عبيدة[5]، وقد جاءه هذا الأخير على الكبر لهذا كان يحبّه[6]، وربما أحبّه أكثر من ولديه الآخرين.

وقبل أن نُنهي البحث في زهد الفُضَيل وننتقل إلى ورعه، يحسن بنا أن نتطرّق إلى أحواله المعيشية؛ لعلّنا من خلال ذلك نتمكّن من أن نُلقي الضوء على موارد عيشه ومدى انسجام ذلك مع زهد النبي (ﷺ) والصحابة والسّلَف الصالح.

الواضح؛ أن الفُضَيل لم يكن في زهده متواكلاً أو مستسلمًا لمشيئة الأقدار ومنتظرًا هِبات المُحسِنين، وإنما كان عاملاً مُثابِرًا يجاهد من أجل لقمة العيش، ولكن الحظ لم يُسعِفه لأن يكون

---

(١) الساتر، الخلاء. لسان العرب (مادة كنف).
(٢) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨.
(٣) تهذيب ابن حجر، ج ٧، ص ٣٧٣.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.
(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٥.
(٦) المكان نفسه.

تاجرًا مقتدرًا كغيره من الأئمة الزاهدين أمثال أستاذه سفيان الثّوري[1]، والإمام عبد الله بن المبارك[2]، وإنما كان يعمل سقّاءً فينقل الماء على حماره، فذكر الشعراني أنه «كان يسقي على الدوام وينفق من ذلك على نفسه وعياله»[3].

ولعلّ تلك الصنعة التي امتهنها الفُضَيل لم تكن لتكفيه وتكفي أهله وعياله الذين ربما كانوا مُستائين من هذا الوضع، بدليل أنه لمّا نظر في وجوههم وهم قعود، قال: «انظروا إلى وجوه موتى»، وقال لهم أيضًا: «الذي تريدون أن تصنعوه إذا مُتّ فاصنعوه الآن»[4]. فقالت له امرأة من نسائه: «قد ترى ما نحن فيه من الضِّيق، فلو قبلت من مال السلطان»، فقال: «إنما مَثلي ومثلكُم كمثلِ قوم لهم بعير يأكلون من كسْبه، فلما كَبِرَ، نحروهُ، فأكلوا لحمَه»[5]، ثم قال: «أبى الله إلاّ أن يجعل أرزاق المتّقين، من حيث لا يحتسبون»[6].

ولعلّه بسبب هذه الحالة؛ قبل الفُضَيل صِلة ابن المبارك ونحوه من أهل الخير[7]، ولكن ابن المبارك الزاهد الغني[8] لم

---

(١) سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ١٢٠ـ ١٢١.
(٢) الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ص ٧٧ وما بعدها.
(٣) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٦.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٣.
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣١.
(٦) طبقات السلمي، ص ١٤.
(٧) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٨؛ تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.
(٨) عبد الله بن المبارك، ص ٧٨.

يَسلَم من نقد الفُضَيل له، فكان يعيب عليه مُزاولة التجارة وامتلاك المال، على الرغم من علمه الراسخ بأنه من كسبه الحلال.

حدّث علي بن الفُضَيل قال: «سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلّل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟! فقال ابن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأُكرِم به عرضي، وأستَعِن به على طاعة ربّي، لا أرى لله حقًّا إلاّ سارعت إليه حتى أقوم به. فقال له الفُضَيل: يا ابن المبارك! ما أحسن ذا إن تمّ ذا»[1].

وذكر ابن عربي[2] أنه لما عاتبه الفُضَيل في تعاطيه التجارة قال له: «لولاك وأصحابك ما أتجرت». ويؤكّد الخطيب البغدادي هذا الأمر، فذكر في تاريخه[3] أن ابن المبارك كان يتجر بالبزّ (الثياب) وكان يقول: «لولا خمسة ما أتجرت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن مَن الخمسة؟ فقال: «سفيان الثّوري، وسفيان بن عُيينة، والفُضَيل بن عِياض، ومحمد بن السمّاك، وإسماعيل بن

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ١٦٠.
(٢) الشيخ محيي الدين بن العربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، ج ٢، ص ٢٤، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٦/١٣٢٤.
(٣) تاريخ بغداد، ج ٦، ص ٢٣٥.

عُليّة»، فكان يخرج فيتجر إلى خراسان، فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج، والباقي يصل به إخوانه الخمسة[1].

ب - ورعــه:

ذكرت المصادر أن الفُضَيل كان زاهدًا ورِعًا، وبشهادة أئمة الحديث وكبار القوم، فقد كان من أورع الناس، قال عبد الله بن المبارك: «أورع مَن رأيت فُضَيل بن عِياض»[2]. وأيّد هذا الرأي إبراهيم بن شماس فقال: «رأيت أفقه الناس، وأورع الناس، وأحفظ الناس، وكيعًا - يعني ابن الجرّاح - والفُضَيل، وابن المبارك»[3]. وناهيك بشهادة الخليفة هارون الرشيد فقال: «ما رأيت أورع منه»[4].

إن هذه المواقف المشرِّفة التي حَظِيَ بها الفُضَيل؛ تدعونا لمعرفة الرجال الذين أثّروا فيه حتى أصبح قمة في الزهد والورع، وقد كفانا الفُضَيل مشقّة البحث عن ذلك حينما أفصح عن اسم أستاذه، فلما سُئِلَ عمّا كان يذهب إليه في الورع: «مَن إمامك في

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ١١٧؛ تهذيب ابن حجر، ج ٥، ص ٣٨٦.
(٢) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥؛ الخزرجي، ص ٢٦٤.
(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٤.
(٤) الخزرجي، ص ٢٦٤.

هذا؟ قال: سفيان الثّوري»[1]، الذي كان يقول: «ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك تركته»[2].

بالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان للفُضَيل اجتهاداته الخاصّة في الورع، فلما قيل له: «ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم»[3]، ثم قال: «أشدّ الورع في اللسان... لأن التعبير كله باللسان لا بالعمل»[4].

ويرى الفُضَيل أيضًا؛ أن الورع هو طلب الحلال، واجتناب المحارم، فمَن كان كذلك فهو من أنصار الله، فقال: «مَن كان يعقل ما يدخل جوفه من حلّه كان في حزب الله تعالى»[5]، وقال أيضًا: «مَن عرف ما يدخل جوفه كان عند الله صديقًا، فانظر من أين يكون مطعمك يا مسكين»[6].

وعن طلب الحلال والصدق في التعامل مع الله عزّ وجل، قال: «لم يتزيّن الناس بشيء أفضل من الصدق، وطلب الحلال[7]، فقال ابنه عليّ: «يا أبتِ إن الحلال عزيز، قال: يا بني، وإن قليله عند الله كثير[8].

(١) الحلية، ج ٧، ص ٣؛ عن ورع الثّوري؛ انظر كتابنا: سفيان الثّوري، ص ١٢١ وما بعدها.
(٢) الرسالة القشيرية، ص ٥٤.
(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩١.
(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٤.
(٦) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٧) طبقات السلمي، ص ١٠.
(٨) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦. قال الفُضَيل: «كانت لنا شاة بالكوفة=

أما بالنسبة للناحية العملية في ورع الفُضَيل، فقد تحدّث عنها بشر الحافي فقال: «عشرة ممّن كانوا يأكلون الحلال، لا يُدخِلُون بطونهم إلاّ حلالاً ولو استفّوا التراب والرماد»[1]، فذكره بينهم كما ذكر ابنه عليًا[2].

وأما بما يخصّ ترك الفُضَيل بعض الحلال مخافة الحرام، فقد بُحِثَ هذا الأمر في حلقة الإمام أحمد بن حنبل، فقيل له إن غلام الفُضَيل جاء بدرهمين، فقال له: «ما عملت في دار فلان؟ فذكر مَن نكره ناحيته، قال: رمى بها بين الحجارة، وقال: لا يتقرّب إلى الله إلاّ بالطيّب»، فعجب ابن حنبل وقال: رحمه الله[3].

وفي حلقة أخرى قيل للإمام أحمد: «إن أبا معاوية الأسود[4] قال للفُضَيل: فضل معي شيء - يعني من الوجه الذي لا يرضاه -

---

= فأكلت شيئًا يسيرًا من علف لبعض الأمراء فما شرب لها لبنًا بعد ذلك» تهذيب ابن حجر، ج ٧ ص ٣٧٣.

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٥؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.

(٢) العشرة الذين ذكرهم بشر الحافي وفق رواية الذهبي هم: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، والفُضَيل بن عِياض، وابنه، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وأبو معاوية نجيح الخادم، وحذيفة المَرعَشي، وداود الطائي، ووهيب بن الورد. (أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٥؛ قابل: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٤).

(٣) كتاب الورع، ص ٨٢.

(٤) اسمه اليمان، وهو من أكابر الصالحين، كان يغزو ويرابط في طرسُوس، ويقال إنه كان مُجاب الدعوة، ويُكثِر من تلاوة المصحف على الرغم من أنه مكفوف البصر. (صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٢٧- ٢٢٨).

قال: أنت خذه واقعد في جلبة - يعني زورق - واقذفه في جوف البحر». فتبسّم أحمد وقال: «هذا الموضع يعجبني أن يتصدّق به؛ وقال: إذا تصدّق به فإيش شيء بقي؟»[1].

وأخيرًا؛ تبرز من خلال هذا الفصل، الناحية الإيمانية في حياة الفُضَيل، فهو في العبادة من أعبد الناس وأتقاهم وهو في المواسم في طليعة الطائفين بالبيت العتيق، وقد جمل ذلك كله بعناية فائقة بكتاب الله عزّ وجلّ، والتصدّي لأهل البدع والمرابطة لهم لأنهم أشدّ خطورة على الدين، فهم العدو القريب الدار. وأما عن زهده وورعه فيأتي في طليعة الركب لأنه اختار ذلك بدافع إيماني نابع من ذاته، من غير أن يطمح إلى الرفعة والشُّهرة وحُسْن الذكر، وإنما كان هاجسه الأكبر التقرّب إلى الله عزّ وجل والانصهار في الذات الإلهية ليتطهّر من آثامه فيولد من جديد ويتقبّله ربّه راضيًا مرضيًا.

---

(١) كتاب الورع، ص ٨٢.

الفصـــل الرابع
آخر نشاطات الفُضَيل بن عِياض ونهايته

أولاً ـ نشاطه الاجتماعي والسياسي:

١ـ دوره الاجتماعي (أقواله وحكمه ونصائحه ومواعظه):

يتمثل الدور الاجتماعي للفُضَيل في مواقفه النبيلة التي عبّر عنها من خلال أقواله السديدة وحكمه البليغة ونصائحه ومواعظه الخالصة لوجه الله عز وجل، ولعلّ الحياة المتناقضة التي عاشها الفُضَيل، والتي بدأت بتمرّد على المبادىء الإنسانية والأخلاقية والدينية، ثم انتهت بالتوبة والعُزلة بكل ما فيها من تعبّد وزهد وتأمّل، قد أورثته جانبًا هامًّا من الحكمة التي تنمّ عن فلسفة عميقة لمُجرَيات الأمور التي عايشها.

ولقد لاحظ الأئمة الكبار تلك الظاهرة في الفُضَيل؛ فأشاروا إليها، ونوّهوا بها، فقال الإمام عبد الله بن المبارك: إن الفُضَيل بن عِياض صدق الله، فأجرى الحِكمة على لسانه...»[1]؛ وقال الإمام النووي: «حِكمه ومَنَاقِبه كثيرة

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٥.

ومشهورة»[1]. ويرى الفُضَيل بدوره؛ أنه مَن عامل الله بالصدق يورثه عزّ وجل الحكمة[2]. وهذا يعني أن الفُضَيل كان صادقًا مع ربّه، وأن توبته كانت خالصة ونقيّة من آثام الماضي، لذا أنعم الله عليه بالحكمة التي سخّرها لصالح المجتمع الإنساني.

أ ـ أقواله وحِكَمه:

إن وجه الأهمية في استعراض أقوال الفُضَيل وحِكَمه؛ هو إظهار الدور الاجتماعي الذي قام به الرجل إبّان مسيرته في الحياة، وهو يتوضّح من خلال مواقفه الرائدة التي تدعو إلى البعد عن الآفات المستشرية بين الناس، فكان من أُولى اهتماماته الدعوة إلى التحلّي بحُسْن الخُلُق لأنه لا يقلّ بنظره عن ممارسة سائر العبادات، بل كان يقدّمه أحيانًا على الصلاة والصيام، فقال: «لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويُحسِن خلقه معهم خير له من قيام الليل وصيام النهار»[3].

وفي يقينه أن حُسْن الخُلق هو المعيار الحقيقيِ لتمييز الإنسان عن سائر المخلوقات، فقال: «...مَن ساء خلقُه شانَ دينَه وحسبه ومروءته»[4]، ويأتي في طليعة الصفات الخُلُقية؛ التجمّل بالتواضع والحياء، والبُعد عن: الظلم والقسوة والتهافت على الدنيا، فقال:

---

(١) تهذيب النووي، ص ٥٠٤.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩٩.
(٣) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨.
(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.

«خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلّة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل»[1].

بعدها؛ أخذ يبيّن الأسباب الآيلة إلى القسوة، فقال: «ثلاث خِصال تُقَسِّي القلب، كثرة الأكل، وكثرة النوم، وكثرة الكلام»[2]. وأظنه يعني أن التخمة تُنسي المرء التفكير بالجِياع، وكثرة النوم تُبعِد عن ذِكر الله والتأمّل في خلقه، وأما الكلام على الآخرين فيحمّلنا أوزار الغيبة ويُميت فينا الرأفة والشفقة وسائر الخِصال الحميدة.

وواضح؛ أن قضية الغيبة كانت شغله الشاغل؛ لهذا أولاها كل اهتماماته، وترجم موقفه منها بأقوال لا تخلو من ردعه الناس للإقلاع عنها، وتحذيرهم من عواقبها، فسمع يقول:

«احفظ لسانك، وأقبل على شأنك، واعرف زَمانك، وأخفِ مكانك»[3]. وقال أيضًا: «يكون شغلك في نفسك، ولا يكون شغلك في غيرك، فمَن كان شغله في غيره فقد مكر به»[4]، ثم قالها كلمة مدوّية ليسمعها القاسي والداني: «لا حجَّ ولا جهادَ، أشدُّ من حبس اللسان، وليس أشدّ غمًّا ممّن سجن لسانه»[5].

(١) طبقات الأولياء، ص ٢٦٧.
(٢) طبقات السلمي، ص ١٣؛ أعلام النبلاء، ج ١٨ ص ٤٤٠.
(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٠٢ـ ١٠٣؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٩.
(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦.

ويرى الفُضَيل؛ أن الذي يغتاب الآخرين يُظهِر الحَسَن ويُضمِر السَيّىء، الأمر الذي يذهب بالصداقة والأخوّة التي دعت إليها الكتب السماوية، فقال: «إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوّة في الله، إنما مثلكم في ذلك الزمان مثل شيء مطليّ بالذهب والفضة، داخله خشب وخارجه حسن!»[1].

بعد ذلك؛ أخذ يبيّن لإخوانه خطورة الغيبة لأنها سيف ذا حدّين، فهي تذهب بالحسنات على قدر ما تُسيء إلى الآخرين. لما فيها من انتهاك للأعراض، وتشويه للسُّمعات الطيبة، ولعلّ مردّ ذلك كله إلى الحقد والغيرة والكراهية. فسُمِع يقول في إحدى حلقاته:

«حسناتك من عدوّك أكثر منها من صديقك، قيل: وكيف ذاك يا أبا علي؟ قال: إن صديقك إذا ذكرت بين يديه، قال: عفاه الله، وعدوّك إذا ذكرت بين يديه يغتابك الليل والنهار. وإنما يدفع المسكين حسناته إليك...»[2]، فلا ترضَ إذا ذكر بين يديك أن تدعو عليه، بل ادعُ له.

وقال له رجل: «إن فلانًا يغتابني. قال: قد جلب الخير جلبًا»[3]، ثم أضاف: «إذا اغتابك عدوّك فهو أنفع لك من الصديق، فإنه كلما اغتابك أعطاك من حسناته»[4].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠٨.
(٤) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٥؛ الكواكب، ج ١، ص ٧٥.

بعد ذلك، انتقل الفُضَيل إلى موضوعي الصداقة والأخوّة، فأعطاهما حيِّزًا لا بأس به، بحيث أحاط بمعظم جوانبهما، لما لهما من أهمية اجتماعية تعود بالخير على أبناء الأمة.

وأول ما يبدأ به؛ أنه يلفت النظر إلى عدم مؤاخاة المرء، الذي إذا ما غضب عبّر عن انفعالاته بالنفاق والكذب على الآخرين، فهذا غير مأمون ولا يُرجَى الخير منه، فقال فيه: «لا تُؤاخِ مَن إذا غضب منك كذب عليك»[١]، وقال أيضًا: «ليس بأخيك مَن إذا منعته شيئًا طلبه، غضب منك»[٢].

ولعلّ الفُضَيل قد عانى الكثير من هؤلاء الأشخاص، ولطالما حاول الحصول على صديق صدوق؛ ولكن مسعاه ظلّ بعيد المنال، فقال: «أنا - منذ عشرين سنة - أطلب رفيقًا، إذا غضب لم يكذب عليّ»[٣]، ولهذا كان يردّد: «إني لا أعتقِدُ إخاءَ الرجل في الرِّضا، ولكني أعتقد إخاءَه في الغضب، إذا أغضبتُه»[٤].

والأخوّة برأيه؛ تتطلّب الإخلاص في السرّ والعلانية، كما تتطلّب صدقًا في المشاعر، وأصالة في العلاقة، وإذا كان الأمر غير ذلك فلا ينال المنافق غير الضلال وغضب الله عزّ وجل. فقال: «مَن أظهر لأخيه الوُدَّ والصَفَاء بلسانه، وأضمرَ له العداوة

---

(١) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.
(٢) المكان نفسه.
(٣) طبقات الأولياء، ص ٢٦٩؛ قابل: تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٨٥.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٠؛ قابل: الحلية، ج ٨، ص ٩٦.

والبغضاء، لعنه الله، فأصمَّه، وأعمى بصيرة قلبه»[١]. وقال أيضًا: «في آخر الزمان أقوامٌ، يكونونَ إخوانَ العَلانَية، أعداءَ السَّريرة»[٢].

بعد ذلك؛ أجرى الفُضَيل مقارنة بين إخوة الماضي وإخوة اليوم فقال: «قد بطلت الإخوة اليوم، كان الرجل يحفظ أولاد أخيه من بعده، ويَعُولهم حتى يبلغوا رشدهم كأنهم أولاده»[٣].

وإلى جانب أقوال الفُضَيل التي تسلّط الأضواء على الأمراض الاجتماعية المعاصرة؛ نجده يفلسف الأمور الحياتية ويصيغها بحِكَم بليغة مستقاة من صميم الواقع، لذا، كان على إخوانه أن يتقبلوا ذلك منه، فيستفيدوا من خبراته، ويعملوا بمقتضاها، فكان يقول: «. . .مَن تكلّم بحِكمة قُبِلَ منه، ومَن تكلّم بسوى ذلك فدعه»[٤].

ولعلّ أبرز ما حفظت لنا المصادر من حِكَم للفُضَيل تتلخص بما ذكره أصحابه وإخوانه وما تناقلته الأجيال المتعاقبة؛ قال مسَلمُ بن عبدالله الخراساني: سمعت الفُضَيل يقول: «إنما أمسَ مثلٌ، واليومَ عملٌ، وغدًا أملٌ»[٥].

---

(١) طبقات السلمي، ص ١٣؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٧.

(٢) السلمي، ص ١٠.

(٣) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.

(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٩.

(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.

وقال في الصبر على الأيام: «يا ابن آدم إنما يَفْضُلكَ الغنيُّ بيومك، أمْسِ قد خلا وغدٌ لم يأتِ، فإن صبرتَ يَوْمَكَ أحمدتَ أمرك، وقويتَ على غَدِكَ، وإن عجزتَ عن يومك دممتَ أمرك وضعفتَ عن غدك. وإن الصبر يورثُ البُرءَ، وإن الجَزَعَ يورثُ السّقم، وبالسقم يكون الموتُ، وبالبرء تكونُ الحياة»[1].

وفي التسامح والتعالي على الجِراح قال: «لا يكون العبد من المتَّقين حتى يأمنه عَدوُّه»[2]. وفي الكرم المستور قال: «أهل الفضل هم أهله ما لم يروا فضلهم»[3].

وفي الإقلاع عن الشرور والتطهّر منها قال: «مَن كشف شرّه، فما ضيّع ما سرّه»[4]، وفي التأدّب والبُعْد عن الكبر، قال: «رأسُ الأدب معرفة الرجل قدره»[5]، ممّن عرف قدره لا يتعدّى طَوْره، ولا يتعالى على الآخرين.

وفوق ذلك؛ فقد كان الفُضَيل يتناول في حكمه قضايا المستقبل، وهذا دليل على أنه كانت له نظرة بعيدة المدى تسبر أغوار الغد وما يحمل من مآسٍ وويلات، وقد عبّر عن ذلك في

---

(١) التذكرة الحمدونية، ج ١، ص ١٧٨.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٣) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٥؛ الكواكب، ج ١، ص ١٤٨.
(٤) طبقات السلمي، ص ١٣.
(٥) العقد الفريد، ج ٢، ص ٤٢٢.

أكثر من مناسبة[1]، فقال: «سيّد القبيلة في آخر الزمان مُنافقهم»[2].

وكما كان يسيء الظن بالأجيال القادمة، كذلك كان يتخوّف من مُعاصِريه ويرفض أن يرضخ لهم مهما عَلَت مكانتهم فسُمِعَ يقول: «والله لأن أكون ترابًا أحبُّ إليَّ من أن أكون في مِسلاخ أفضل أهل الأرض»[2].

ب ـ نصائحه ومواعظه ووصاياه:

يتجلّى الدور الاجتماعي للفُضَيل أيضًا من خلال نصائحه ووصاياه التي كان يجود بها على أصحابه، فكان يمارس من خلالها مهمة المُصلِح الاجتماعي، الذي يرى الأمور ببصيرته فينقلها بصدق حتى لا يُحاسَب عليها، فهو مسؤول أمام الله وأمام ضميره. لهذا قال فيه علي بن الحسن: «ما رأيت أنصح للمسلمين منه»[3].

وأول ما نستهلّ به هذا الجانب؛ ذِكْر بعض نصائحه الخاطفة التي تكتنز في مضمونها الحكمة والموعظة، ففي البُعد عن الوجاهة والرياسة في الحياة قال محذِّرًا من مخاطرهما: «حيث ما كنت

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤ـ ١٠٥؛ تاريخ بغداد، ج ٤، ص ١٢.
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٣٣.

فكن ذَنَبًا ولا تكنْ رأسًا، فإن الرأس تهلك والذنب ينجو»[1]، فبذلك يدعو إلى الزهد في التقدّم على الآخرين والتواضع من غير ذلّ.

كذلك، كان ينصح بالصبر وعدم تعجّل الأمور حتى لا يعترينا الندم، فقال: «صبر قليل ونعيم طويل، وعجلة قليلة وندامة طويلة، رحم الله عبدًا أحمد ذكره، وبكى على خطيئته قبل أن يرتهن بعمله»[2].

ودعا إلى عدم أخذ الأشياء إلاّ في مواقيتها حتى لا نُغضب الخالق. فقال: «أُمرنا أن لا نأخذ الشيء إلاّ في وقت الحاجة، فإذا كان ذاك لم تجعل فيما بينك وبين الله عزّ وجل الأَنَفَة»[3].

ونصح أصحابه بالتمسّك بخمسة أمور لأن فيها النجاة في الدنيا والآخرة، فقال: «مَن واقى خمسًا فقد وقى شرّ الدنيا والآخرة: العجب، والرياء، والكبر، والإزْرَاء[4]، والشهوة»[5].

وفوق ذلك، كان يدعو الناس إلى التفاخر بأعمالهم الصالحة وليس بالتستّر خلف أحسابهم وأنسابهم نستشف ذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين خالد بن خداش.

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١١٣؛ قابل: التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٩١.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٤) التهاون بالشيء (مختار الصحاح، ص ٢٧١).
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٩٥.

قال خالد: «قال لي الفُضَيل بن عِياض: مِمّن أنت؟ قلت مهلبي، قال: إن كنت رجلاً صالحًا فأنت الشريف، وإن كنت رجل سوء فأنت الوضيع كل الوضع»[1].

وقيل أيضًا، إنه دخل عليه قوم فقال: «ممّن؟ قالوا: من خراسان، قال: اتّقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين»[2].

ومثل هذه النصيحة ذكرها خلال دعوته لعدم إيذاء المخلوقات فقال: «والله ما يَحلُ لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا؟!»[3].

وحذّر الناس من الحسد لأنه داء لا دواء له، فقال: «إن الله تعالى يقسم المحبة كما يقسم الرزق، وكلّ ذا من الله تعالى، وإيّاكم والحسد فإنه ليس له دواء»[4].

كما حذّر من الوقوع في الجهل لأنه يفسد الدين والدنيا فقال: «إن فيكم خَصْلتين هما من الجهل: الضَّحِك من غير

---

(١) الحلية، ج ٧، ص ٩٦.
(٢) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.
(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٤) الحلية، ج ٨، ص ٩٩.

عَجَب، والتَّصبُّح من غير سَهَر»[1]، أي النوم أول النهار لأنه وقت الذِّكر، ثم وقت طلب الكسب[2].

كذلك؛ كان يكره الصياح والضجيج الذي يُحدِثه البَاعَة، فهو يريد منهم أن يُقلِعوا عن تلك العادة، ودعم وجهة نظره بقول لسعيد بن المسيب فقال: «إن الله إذا أبغض عبدًا جعل رزقه في الصياح». ثم قال لأحد جلسائه متأفّفًا؛ «أما سمعت إلى أهل دار البطيخ[3] والملاّحين ودَوِيِّهم؟!»[4].

وإذا انتقلنا في نصائحه من التعميم إلى التخصيص نجده صلبًا مع أهل بيته ومع أقرب أصحابه إليه، فذكر أبو نعيم أنه أول ما تصدّى لابنه عليّ، الذي وجد نفسه في عبادته وتقواه قريبًا من الله عزّ وجل، فقال له: «لعلّك ترى نفسك أنك في شيء؟ الجعل أطوع لله منك»[5].

كذلك تصدّى للحسن بن زياد، فلما دخل عليه المسجد قال له: «يا حسن عساك ترى أن بالمسجد الحرام رجلاً شرًّا منّي ومنك، فقد ابتليت بعظيم»[6].

---

(١) طبقات السلمي، ص ١٢ـ ١٣.
(٢) لسان العرب، مادة (صبح) وفي الحديث الشريف: إنه (ﷺ) نهى عن الصُّبحة، المكان نفسه؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٩.
(٣) دَارُ البطيخ: محلة كانت ببغداد كان يُباع فيها الفواكه (معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٨).
(٤) عيون الأخبار، ج ١، ص ٢٥٢.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٠٨.
(٦) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦؛ الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.

وحدّث الفيض بن إسحٰق، قال: قال لي الفُضَيل: «لو قيل لك: يا مُرائي، غضبتَ، وشقَّ عليك، وعسى ما قيل لك حق، تزيَّنت للدنيا وتصنَّعت، وقصرت ثيابك، وحسنت سمتك، وكففت أذاك حتى يقال: أبو فلان عابدٌ، ما أحسنَ سَمْتَه فيكرمونك، وينظرونك، ويقصدونك ويهدون إليك، مثل الدرهم السُّتُوق[1] لا يعرفه كُلُّ أحد فإذا قُشر، قُشر عن نحاس»[2].

وأما بالنسبة لموقفه من الإمام سفيان الثّوري، فتظهر من خلاله الصراحة المتناهية والنصيحة الخالصة لوجه الله.

قال أبو عبد الله الأنطاكي: «اجتمع الفُضَيل والثّوري، فتذاكرا، فرقّ سفيان وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلسُ علينا رحمة وبركة، فقال له الفُضَيل: لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرّ علينا منه، ألست تخلَّصت إلى أحسن حديثك، وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتزيّنتَ لي وتزيّنتُ لك؟ فبكى سفيان، وقال: أحييتني أحياك الله»[3].

وحدّث أبو جعفر الحذّاء عن موقفه من سفيان بن عُيينة، فقال: سمعت فُضَيل بن عِياض يقول: «أخذتُ بيد ابن عُيينة في هذا الوادي، فقلت له: إن كنتَ تظُنُّ أنه بقي على وجه الأرض شرٌّ منيَ ومنك، فبئس ما تَظنُّ»[4].

---

(١) هو الرديء الزيف الذي لا خير فيه. لسان العرب (مادة ستق).
(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٩.
(٣) المكان نفسه؛ قابل: الحلية، ج ٨، ص ١١٤.
(٤) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦٠؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥.

إلى جانب ما ذكرناه فقد كان للفُضَيل مواعظ حسنة أشار إليها أصحابه ورفاق دربه، فحدّث إبراهيم بن الأشعث، قال: «كنّا إذا خرجنا مع الفُضَيل في جنازة لا يزال يعظ، ويذكر ويبكي كأنه مودعٌ أصحابه، ذاهبٌ إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس فكأنه بين الموتى من الحزن والبكاء، حتى يقوم ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها»[١].

ويُروَى أنه كان إذا طُلب منه موعظة، يقول: «كفى بالله محبًا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا، وبخشية الله علمًا، وبالاغترار جهلاً»[٢].

ووعظ أحد أصحابه بقوله: «طول الصراط[٣] خمسة عشر ألف فرسخًا فانظر يا أخي أيّ رجل تكون»[٤].

وأما عن وصاياه فقد تحدّث إبراهيم بن الشماس قال: قال رجل للفُضَيل: أوصِني، قال: «اخفِ مكانك لا تعرف متكرّم بعملك، واخزن لسانك إلاّ من خير، وتعاهد قلبك أن لا يقسو، وهل تدري ما قساوة مَن أذنب؟!»[٥].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٤٠.
(٣) هو الصراط المستقيم، الطريق في الآخرة. لسان العرب، (مادة صرط).
(٤) طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.
(٥) الحلية، ج ٨، ص ٩٧.

ونصح رجلاً آخر في البُعد عن الذنوب فقال له: «بقدر ما يصغر الذَّنبُ عندك يعظمُ عند الله، وبقدر ما يَعْظُمُ عندك يصغر عند الله»[1].

وبالإضافة إلى ذلك؛ كان ينصح الناس بالمرابطة للشيطان وأخذ الحيطة والحذر منه لأنه أساس كل بلاء، فسمعه الفيض بن إسحٰق يقول: «لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله، لعلّه يكون كثير الطواف فيقول: ما كان أجل الطواف الليلة، أو يكون صائمًا فيقول: ما أثقل السحور أو ما أشدّ العطش»[2].

وكان يدعو الناس إلى عدم التبجّح والتكبّر أو التعالي على الآخرين لعطاء قدّموه لهم، أو فضيلة عرفوا بها لأنهم لم يزالوا في أول طريق الخير، فقال:

«ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كلّه، تدري مَن كان يتكلم بفمه كله؟ عُمَرُ بن الخطاب، كان يطعمهم الطَيِّبَ، ويأكل الغليظ، ويكسوهم اللينَ ويلبس الخشن، ويعطيهم الحقَّ ويزيدهم، وأعطى رجلاً عطاءه أربعة آلاف درهم وزاده ألفًا فقيل له: ألا تزيدُ ابنك كما تزيد هذا؟ فقال: إن هذا ثبت أبوه يوم أُحُد ولم يثبت أبو هذا - يعني ابنه -»[3].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٧.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ٩١.
(٣) التذكرة الحمدونية، ج ١، ص ١٤٤ـ ١٤٥.

نخلص إلى القول: إن الفُضَيل بن عِياض وعلى الرغم من اعتزاله الناس؛ فإنه لم ينسَ يومًا دوره الريادي في المجتمع؛ لأنه يعلم حقّ العلم أن مكافحة الفساد الاجتماعي لا يقلّ عن ممارسة سائر العبادات أو المرابطة لأعداء الدولة، فهو يجد أن عدوّ الدار هو العدوّ الأقرب والعنصر الأكثر خطورة لما يُحدِث من ثُلْمات في البنية الداخلية للمجتمع الإسلامي.

٢ـ دوره السياسي: (علاقته بالخلفاء العباسيين):

إن العزلة الرهيبة التي فرضها الفُضَيل بن عِياض على نفسه، والتي كان يقضيها بالمناجاة والتفكّر حينًا، وبمعاتبة نفسه وكبح جماحها أحيانًا أخرى، ومن ثم انشغاله بالعبادة وفلسفته لأمور الزهد والورع، فإن ذلك كله لم يجعله بمنأى عن مخالفة كبار القوم، الذين ما إن تسامعوا به حتى عمدوا إلى الإتيان به إلى مجالسهم، ولما لم يجدوا منه إلاّ الصّدود والعُزُوف عن مُغرياتهم، قصدوه في منزله للأخذ عنه والاستفادة من تجاربه وحِكَمه الرائدة. وقبل أن نبحث في هذا الأمر؛ أجد من المناسب أن نستعرض موقفه من مخالفة الحكّام.

أ ـ موقفه من الأمر والنهي ومخالطة السلاطين:

الواقع؛ إن الفُضَيل كان في عداد جمهرة المحدّثين الزاهدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فكان يسير وفق مبدأ الرسول الكريم القائل: «الدين النصيحة»، لذا وضع نصب عينيه أن يساهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، حتى ينتشر العدل بين

الرعيّة. فكان يقول: «إني لأستحي من الله أن أشبع حتى أرى العدل قد بسط، وأرى الحق قد قام»[1].

انطلاقًا من هذا المبدأ وجد الفُضَيل أنه لا أجْر للعبد من صلاة وصيام إذا لم يقم بدور المحتسب[2]، على أن يتمّ ذلك بنيّة خالصة من أجل الجماعة، لهذا قال: «لا عمل لمَن لا نيّة له، ولا أجْر لمن لا حِسْبَة له»[3].

وفي يقينه؛ إن المرء لا يرتفع بين القوم، ولا يبلغ مركز الشُّهرة بانكبابه على العبادة فحسب، وإنما هناك أمور عديدة لا بدّ أن تتوفّر فيه حتى يرفعه الله ويقرّبه من قلوب الناس، فسُمِع يقول: «لم يُدرك ـ عندنا ـ مَن أدرك، بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنْفُس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة»[4].

ولما خلُص الفُضَيل من تبيان موقفه من قضية الأمر والنهي، انتقل لشرح معتقده من مخالطة السلاطين، فذكر أن أجْر مَن لا يخالطهم أفضل عند الله من الصلاة والصوم والحج والجهاد، فسُمِعَ يقول: «رجلٌ لا يخالط هؤلاء ـ يعني السلاطين ـ ولا يزيدُ على

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٨.
(٢) عن الحسبة ودور المحتسب في الأمر والنهي؛ انظر: علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٤٠ وما بعدها، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨/١٩٧٨.
(٣) طبقات السلمي، ص ١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠، طبقات الأولياء، ص ٢٦٧؛ تهذيب النووي، ص ٥٠٤.

المكتوبة، أفضلُ عندنا من رجلٍ يقوم الليل ويصوم النهار ويحجُّ ويعتمر ويجاهد في سبيل الله ويخالطهم»[١]، وإذا كنّا لا نبرىء هذا القول من المبالغات فإنه صرّح بموقف آخر فيه بعض الاعتدال، فقال: «ما على الرجل إذا كان فيه ثلاث خِصال: إذا لم يكن صاحب هوى، ولا يشتم السّلَف، ولا يخالط السلطان»[٢].

بعد ذلك؛ توجّه الفُضَيل في لومه وعتابه إلى العلماء، الذين هم سِراج الدنيا وورثة الأنبياء والمعوّل عليهم في النصح والإرشاد، فقال لهم: «ما لكم وللملوك؟ ما أعظم مِنّتهم عليكم، قد تركوا لكم طريق الآخرة، فاركبوا طريق الآخرة، ولكن لا ترضون تبيعونهم بالدنيا ثم تزاحمونهم على الدنيا، ما ينبغي لعالِم أن يرضى هذا لنفسه»[٣]، وقال أيضًا: «لو كان مع علمائنا صبر ما غدوا لأبواب هؤلاء - يعني الملوك -»[٤].

فيما بعد؛ خفّف من تهجّمه على العلماء، وعمد إلى تعزيز مكانتهم لكي تعود إليهم ثقتهم بأنفسهم لأنهم الأمل والرجاء، فقال: «لا ينبغي لحامل القرآن أن تكون له إلى الخلق حاجة إلى الخلفاء فمَن دونهم، ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه»[٥].

---

(١) الحلية، ج ٨. ص ٩٨؛ تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٠٧.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(٥) طبقات السلمي، ص ١٠.

وأخيرًا؛ يحذّر الفُضَيل الناس من أن يدنسوا أنفسهم بمخالطة السلاطين، وبخاصّة الظَّلَمَة منهم، فيقول: «لأن يدنوا الرجل من جيفة خير له من أن يدنو إلى هؤلاء ـ يعني السلاطين ـ»[1].

بعد عرض الناحية النظرية في موقف الفُضَيل من مخالطة السلاطين، ننتقل إلى الناحية العملية التي نتبيّن من خلالها؛ أنه كان يتصلّب في التعاطي مع الكبار حينًا ويتساهل معهم أحيانًا أخرى، خصوصًا حينما كان يجد أن الصالح العامّ يستدعي منه موقفًا هادئًا ومعتدلاً.

فمن مواقفه المتصلّبة ما أعلنه عن استنكافه من ذكره لحديث رسول الله (ﷺ) بين يدي الوزير جعفر البرمكي[2]، فلما قيل له: لِما لا تحدّث جعفر بن يحيىٰ؟ قال: أنا أجلّ حديث رسول الله (ﷺ) أن أحدّث به جعفر بن يحيىٰ وأتباعه»[3].

إلى جانب ذلك؛ فقد كان يتّهم زبيدة زوج الرشيد بالجهل وسوء التدبير، فسمعه إبراهيم بن الشماس يقول: «رأيت الفُضَيل

---

(1) الحلية، ج ٨، ص ٩٨.
(2) هو أبو الفضل جعفر بن يحيىٰ البرمكي وزير الخليفة هارون الرشيد، كان مشهورًا في أسرته، وقد ألقى إليه الرشيد أزمة الملك، فانقادت له الدولة، ثم قتله وأحرق جثته. عن سيرته انظر: (محمد بن يحيىٰ الصولي، كتاب أشعار أولاد الخلفاء، ص ٣٤، ٥٧، بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٩/١٩٧٩؛ ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٠٥.
(3) تهذيب النووي، ص ٥٠٣.

وأشار إلى قصر أُم جعفر[(١)] بمكة فقال: يغفر الله لصاحبة هذا القصر سبعين مرة من قبل أن يغفر لي مرة. هي تعمل الشيء بجهل وأنا أعمله بعلم»[(٢)].

وبالمقابل؛ فقد كان متساهلاً إزاء خليفة المسلمين، لهذا كان يدعو له بالصلاح، فسمعه عبد الصمد بن يزيد يقول: «لو أن لي دعوة مُستجابة ما جعلتها إلاّ في إمام فصلاح الإمام صلاحُ البلاد والعباد»[(٣)].

وإذا كان الفُضَيل معتدلاً أحيانًا في موقفه من السلطان؛ فإن ولده عليًا كان أشدّ تصلّبًا، وبصيرته أشمل وأعمق من نظرة أبيه الفُضَيل، يظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينهما، فلما قال الفُضَيل لابنه عليّ: «أمير المؤمنين قد أخلى له الطواف جيء نغتنم الطواف، فقال عليّ: يا أبت نغتنم خلوة الحور - أي حُور العِّين في الفردوس -»[(٤)].

ب - علاقته بالخليفة هارون الرشيد:

بملاحظة المؤرخين؛ فقد كان الخليفة هارون الرشيد مولعًا

(١) هي أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية: كنيتها أُم جعفر، ولقبها زبيدة، لقّبها به جدّها المنصور لبياضها ونعومتها، تزوّج بها الرشيد سنة ١٦٥/ ٧٨٢، وولدت له محمدًا الأمين سنة ١٧٠/ ٧٨٦، وتوفيت سنة ٢١٦/ ٨٣١. (الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٤٢).

(٢) كتاب الورع، ص ١٢.

(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٤؛ قابل: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨.

(٤) الحلية، ج ٨، ص ٢٧٩.

بمجالس العلماء والفقهاء والمحدّثين الزاهدين، فذكر ابن قتيبة الدينوري[1] أن الرشيد كثيرًا ما كان يتلثّم فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرَف، وكان قد جعل ليلة في كل أسبوع لمجالسة العلماء والفقهاء؛ يُذاكرهم العلم ويُدارسهم الفقه، وكما جعل ليلة أخرى للقرّاء والعباد يتصفّح وجوههم ويتّعظ برؤيتهم ويستمع لمواعظهم ويرقّ قلبه بكلامهم.

ومن بين المحدّثين الزاهدين الذين كان يأنس بهم الرشيد؛ الفُضَيل بن عِياض، الذي كان يتجنّب، قدر استطاعته، الاجتماع بالخليفة، وكان أيضًا يدعو إلى عدم مخالطته أو تولّي مناصبه، وأخذ صِلاته وهِباته. ومن جهة أخرى، كان يكنّ له كل جميل، ليس حبًّا به، وإنما شفقة منه على أبناء الأمة وما ينزل بهم من ويلات ومصائب بعد موت هارون!؟.

حدّث محمد بن عثمان قال: «سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول: (ما على ظهر الأرض أبغض من هارون، ولا أحد أحبّ إليّ بقاء منه، لو قيل: انتقص من عمرك ويُزاد في عمره، لفعلت، ولو خُيِّرت بين موته أو موت هذا ـ يُريد ابنه أبا عبيدة ـ وإني لأحبّه ـ يعني أبا عبيدة ـ وقال: وأحبّه لأنه جاءني على الكبر، لاخترت موت هذا، فسبحان الذي جمع بين هاتين الخصلتين في قلبي). قال محمد: يريد لما يحدث بعد هارون من البلاء»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة، ص ٣٧٣، القاهرة: ١٣٢٧/١٩٠٩.

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤ـ ١٠٥، والمقصود بالبلاء هنا: الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون وبالتالي محنة خلق القرآن في عهد المأمون

ومما يؤكد صحة هذه الرواية ما ذكره عبد الرزّاق بن همّام، فقال: «كنت جالسًا مع فُضَيل بن عِياض بمكة، فمرّ هارون الرشيد، فقال فُضَيل بن عِياض: (الناس يكرهون هذا وما في الأرض أعزّ عليّ منه، لو أنه حتى يضع رأسه، لرأيت أمورًا عِظامًا)، قال عبد الرزّاق: فلما مات هارون وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس على أن القرآن مخلوق، قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكتم به»[1].

ـ دخول الرشيد على الفُضَيل:

من الواضح؛ أن الرشيد كان ينشد الاجتماع بالفُضَيل بن عِياض؛ لما سمعه عنه من عبادة وتقوى، وزهد وورع، بحيث أصبح موضوع حديث القوم، ومضرب المثل بين المعاصرين.

رُوِيَ أنه بينما كان الرشيد يومًا في مجلس محمد بن السماك الواعظ[2]، وقد قصد لرؤيته ويسمع لموعظته ولا يعلم أحد بمكانه، فسمع بعض أهل المجلس يذكر الفُضَيل بن عِياض، ويصف فضله وعبادته وعلمه وورعه، فاشتهى النظر إليه وتاقت نفسه إلى رؤيته ومحادثته، فتوجّه من العراق إلى الحجاز قاصدًا

الذي اتخذ الاعتزال مذهبًا للخلافة العباسية. (انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٢٢ وما بعدها، ص ٤٢٣ وما بعدها).

(١) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ١٢.

(٢) هو أبو العباس، محمد بن صبيح الواعظ الكوفي، رحل إلى بغداد ثم عاد إلى موطنه الكوفة حيث مات سنة ١٨٣/ ٧٩٩ (صفة الصفوة، ج ٣، ص ١١٥ وما بعدها).

إليه ومعه أحد الفقهاء، فدخلا عليه وهو لا يعلم أن الرشيد بينهما، فتحدّثوا ساعة ثم قال له الفقيه: «يا أبا علي أتدري مَن هذا؟ قال: لا، فقال: هذا هارون الرشيد أمير المؤمنين»، فنظر إليه الفُضَيل ساعة ثم قال: «هذا الوجه الجميل يُسأل غدًا عن أُمّة محمد ويُؤاخَذ بها لئن كان العفو والغفران يَسَعَك مع ما أنت فيه إن هذا لهو الفضل المبين» ثم جعل الفُضَيل يعظه ويخوّفه حتى بكى هارون بكاءً شديدًا، قال الفقيه: «ما رأيت أحدًا يبكي بكاء الرشيد يومئذ»[1].

ولما أفاق الرشيد من بكائه، جعل الفُضَيل يذكر مثالبه ومثالب أهل بيته ورداءة سيرتهم وخلافهم الحق ثم لم يدع شيئًا يعيبه به ولا أمرًا ينتقصه فيه إلاّ واستقبله به، فقال الرشيد: «يا أبا عليّ أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله لك؟ فقال الفُضَيل: بلى، فقال الرشيد: فما جعلك بأحقّ أن ترجو المغفرة منّي وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات، ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخيّر بين شيء وبين الله إلاّ اخترت الله تعالى على ما سواه، والله الشاهد على قولي، والمُطّلع على نيّتي وضميري، وكفى به شهيدًا، وأنا مع هذا لي من الإصلاح بين الناس والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لا تَليه أنت، فما جعلك أحقّ أن ترجو المغفرة مني؟ فسكت الفُضَيل ساعة ثم قال: ما ظلمك مَن حجّك، ثم قام هارون

---

(١) عيون الأخبار، ص ٣٧٣ـ ٣٧٤.

للخروج فقال الفُضَيل: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل إنه ما قلت»[1].

ولعلّ الرشيد قد أخذ بمقولة الفُضَيل، فبادر فور عودته إلى بغداد بأخذ الأمور بجدّيّة، فعمد إلى النهوض بالعلم وأهله وبالتالي تشجيع الطلاب على الإحاطة بعلوم عصرهم بعد أن شملهم بعطفه ووزّع عليهم المِنَح والهِبات المالية.

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا الأمر؛ فذكر أنه لمّا قَدِمَ الرشيد العراق، كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد أما بعد:

«فانظروا مَن التزم الإذن عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومَن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومَن جمع القرآن وروى الحديث وتفقّه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿**أطيعوا الله وأطيعُوا الرَسُولَ وأُولِي الأمرِ مِنك**﴾[2]، وهم أهل العلم»[3].

---

(١) عيون الأخبار، ص؛ ٣٧٤ـ ٣٧٥.
(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.
(٣) عيون الأخبار، ص ٣٧٥.

ولقد علّق عبد الله بن المبارك على تلك الظاهرة الحضارية بقوله: «فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرّمات في أيام بعد أيام رسول الله (ﷺ) وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة»[1].

ولو بحثنا في الدوافع الأساسية التي حدت بالرشيد للقيام بهذا العمل المتطوّر، نجد أن الخليفة كان يتحلّى بمزايا حبّه للعلم واهتمامه بالعلماء، وأنه كان يتأثّر برأي البعض منهم، مما يؤكد على دور الفُضَيل في بعث هذه الظاهرة الثقافية في نفس الرشيد، الذي لم يتأخّر في تبنّي سياسة نشر العلم بين الناس، وبشتى الوسائل، مما أضفى على عهده طابع الرقيّ والازدهار.

ومن المفيد أن نذكر؛ إنها لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي استجاب الرشيد فيها لرأي الفُضَيل وأخذ بنصيحته؛ فذكر اليعقوبي أن الخليفة أخذ في سنة ١٨٤/ ٨٠٠ العمّال والتنأة والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلاّت والمُقبِلين[2]، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم بن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب، وصادف أن اعتلّ الرشيد في تلك

---

(١) عيون الأخبار، ص ٣٧٥.

(٢) التنأة: المقيمون؛ الدهاقون: رؤساء الأقاليم؛ المقبلون: الضامنون للغلاّت.

السنة علّة شديدة وأشفي منها، فدخل إليه الفُضَيل فرأى الناس يُعذبون في الخراج، فقال: ارفعوا عنهم إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «مَن عذّب الناس في الدنيا عذّبه الله يوم القيامة»[1]، فأمر بأن يُرفَع العذاب عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة[2].

والجدير ذكره؛ أن الرشيد قد التقى الفُضَيل مرات عديدة[3]، فيُروَى أنه التقاه يومًا فقال له: «ما أزهدك! فقال الفُضَيل: أنت أزهد منّي، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة؛ والدنيا فانية والآخرة باقية»[4].

وفي مرة أخرى قال له الفُضَيل: «إن الله لم يجعل أحدًا من هؤلاء فوقك في الدنيا، فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة، فاكدح لنفسك واعملها في طاعة ربك»[5].

وقال المأمون: «قال لي الرشيد: ما رأت عيناي مثلَ فضيل بن عياض، دخلتُ عليه فقال لي: فرِّغْ قلبك للحزن وللخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن المعاصي، ويباعداك من النار»[6].

---

(١) لم أتمكن من تخريجه.
(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤١٥.
(٣) انظر: الملحق رقم (١).
(٤) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٨؛ طبقات الأولياء، ص ٢٦٨؛ شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧.
(٥) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢١٥ وما بعدها.
(٦) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨.

وأحيانًا كثيرة كان لا يتردّد في النيل من الخليفة ومن مرافقيه، قال مُحرِز بن عَوْن: «كنت عند الفُضَيل، فأتى هارون ومعه يحيىٰ بن خالد ـ البرمكي ـ وولده جعفر، فقال له يحيىٰ: يا أبا علي، هذا أميرُ المؤمنين يُسلِّم عليك. قال: أيُّكم هو؟ قالوا: هذا. فقال: يا حسن الوجه، لقد طُوِّقتَ أمرًا عظيمًا، وكرّرها. ثم قال: حدّثني عبيدٌ المُكتِب، عن مجاهد في قوله: ﴿**وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ**﴾[1]. قال: الأوصال التي كانت في الدنيا[2]. وأومأ بيده إليهم»[3].

ـ دخول الفُضَيل على الرشيد:

وكما كان الخليفة يقصد الفُضَيل في منزله، كذلك كان الفُضَيل بدوره يدخل عليه من حين لآخر لينصحه في أمر الأمة، فيؤدّي رسالته بأمانة، ويبقى وفيًّا لمبادئه من دون أن يذلّ نفسه أو يُغبّرها بماله وهباته.

غير أنه كان، في كل مرة يزور فيها الرشيد، يتردّد كثيرًا قبل أن يدخل عليه، كما كان أحيانًا يخفي شخصيته حتى لا يراه العلماء فيتأسّون به، وكان أيضًا، يتجاهل شخص الخليفة إما للتصغير من شأنه وإما لقلّة اختلاطه به. وفي يقيني أن الأمر الأول هو الأصحّ؛

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٦.

(٢) إسناده صحيح، وأخرجه الطبري من طريق الفُضَيل بن عِياض وجرير بن عبد الحميد الضبّي، كلاهما عن عبيد المكتب، عن مجاهد (ج ٢، ص ٧١) نقلاً عن أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤١.

(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤١.

لأنه لا يمكن أن تخفى على رجل نبيه مثل الفُضَيل؛ شخصية الرشيد؛ بكل ما أحاط به نفسه من أبّهة الخلافة وعزّة الملك، حتى ولو كانت حاشيته على مستوى كبير من الأهمية، فإن واسطة العقد لا تخفى على الناظرين.

حدّث الفُضَيل بحضور محمد بن عبد الله الأنباري قال: «لما قَدِمَ هارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجْر[1] هو وولدُه، وقومٌ من الهاشميين، وأحضروا المشايخ، فبعثوا إليّ فأردت أن لا أذهب، فاستشرت جاري، فقال: اذهب لعلّه يريد أن تعظه، فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحِجْر، قلت لأدناهم: أيُّكم أميرُ المؤمنين؟ فأشار إليه، فقلتُ: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فردّ عليّ، وقال: اقعُد، ثم قال: إنما دعوناك لتحدّثنا بشيء، وتعظَنا، فأقبلتُ عليه. فقلت: يا حسنَ الوجه حسابُ الخلق كلهم عليك. فجعل يبكي ويشْهَقُ، فرددتُ عليه، وهو يبكي، حتى جاء الخدم فحملوني وأخرجوني، وقال: اذهب بسلام»[2].

وحدّث سفيان بن عُيينة، فقال: «دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه، ودخل الفُضَيل آخرنا مقنّعًا رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، أيّهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد،

---

(١) قال الجوهري: الحِجْرُ، حِجْر الكعبة، وهو ما حواه الحطيم المدار بالبيت جانبَ الشّمالِ. وقال ابن الأثير: هو اسم الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي. لسان العرب، (مادة حجر).

(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٠ـ ٤٤١.

فقال له: يا حسن الوجه، أنت الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك؛ لقد تقلّدت أمرًا عظيمًا، إني ما رأيت أحدًا أحسن وجهًا منك، فإن قدرت أن لا تسوّد هذا الوجه بلفحة من النار، فافعل»[1]، فبكى الرشيد ثم قال عِظني، فقال الفُضَيل: «بماذا أعِظُكَ؟ هذا كتابُ الله تعالى بين الدفّتين، انظر ماذا عمل بمَن أطاعه، وماذا عمل بمَن عصاه، وقال: إني رأيتُ الناس يغوصون على النار غَوْصًا شديدًا، ويطلبونها طلبًا حثيثًا، أما والله لو طلبوا الجنَّة بمثلها أو أيسرَ، لنالوها، فقال الرشيد: عد إليَّ، فقال: لو لم تبعث إليّ لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني، عدتُ إليك»[2].

قال ابن عُيينة: وقبل أن نرحل «أتى كل رجل منّا ببدرة[3]، فكلٌّ قبلها إلاّ الفُضَيل، فقال له الرشيد: يا أبا علي إن لم تستحلّها فأعطها ذا دَيْن، وأشبع بها جائعًا، واكسِ بها عريانًا، فاستعفاه منها، فلما خرجنا قلت له: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البرّ؟ فأخذ بلحيتي، ثم قال: يا أبا محمد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي»[4].

---

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٤؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٧ـ ٤٨.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٥؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٥ـ ٤٣٦.
(٣) كيس فيه عشرة آلاف درهم (شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٧، قابل: لسان العرب «مادة بدر»).
(٤) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٤ـ ٣٥٠؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٧ـ ٤٨.

ولعلّ الفُضَيل لم يغفر لابن عُيينة غلطته معه، فكان يذكّره فيها ويعاتبه عليها من حين لآخر حتى لا يحلّل للناس أموال الحكّام.

قال شاهد عيان: «شهدت الفُضَيل بن عِياض وجلس إليه سفيان بن عُيينة فتكلم الفُضَيل فقال: كنتم معشر العلماء، سُرُج البلاد يُستضاء بكم فصرتم ظَلَمَة، وكنتم نُجومًا يُهتَدى بكم فصرتم حيرة، ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظَّلَمَة، ثم يسند ظهره يقول: حدّثنا فلان عن فلان. فقال سفيان: لئن كنّا لسنا بصالحين فإنّا نحبّهم»[1].

وهكذا فقد مارس الفُضَيل رسالته بإتقان وإخلاص إزاء خليفة بني العباس وبطانته، وعلى الرغم من مُغرياتهم؛ فقد ظلّ وفيًّا للأمانة التي يحملها، فجابه القوم بشجاعة أدبية منقطعة النظير، ورفض أموالهم بعزٍّ وكبرياء في وقت كان بأمسّ الحاجة إلى مساعدة تُعينه على دهره، ولكنه فضّل أن يعيش نظيف الكفّ ويموت مرتاح الضمير.

ثانيًا ـ نهاية الفُضَيل وتقويمه:

١ ـ وفاته:

بعد هذه الحياة المجهدة التي عاشها الفُضَيل، بدأت بوادر نهايته التي كان يتخوّف منها، وطالما استعدّ لها بشتّى الأمور التي

---

(١) صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦١؛ طبقات الشعراني، ج ١، ص ٧٦.

تقرّبه إلى الله عزّ وجل؛ ولكن رهبته منها ظلّت في وجدانه حتى الرمق الأخير.

والملاحظ من خلال تسلسل الأحداث؛ أن الفُضَيل قد مرض في أيامه الأخيرة، وكانت علّته شديدة الوطأة عليه، لهذا كان يشتكي كثيرًا، كما كان يرجو الله أن يرحمه وأن يخفّف من عذابه.

قال خادمه الأمين إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفُضَيل يقول في مرضه الذي مات فيه: «ارحمني بحبِّي إياك، فليس شيء أحبّ إليّ منك»[1]. وسمعه يقول وهو يشتكي؛ «مسَّني الضُّر وأنتَ أرْحَمُ الراحِمينَ»[2]. وسُمع كثيرًا يقول: «ارحمني فإنك بي عالم، ولا تعذّبني فإنك عليّ قادر»[3].

بعد ذلك؛ لاحظ ابن الأشعث أن خوف الفُضَيل بدأ يتلاشى، وحلّ مكانه الرجاء، فلما سأله عن ذلك قال: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجلُ صحيحًا، فإذا نزل به الموت، فالرجاءُ أفضل»[4]. وعقّب على ذلك بقوله: «إذا كان الرجل في

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٦.

(٢) المكان نفسه في المصدرين، والعبارة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿**وأيُوب إذ نادى ربّه إني مَسّني الضُّرُ وأنت أرحَمُ الراحمينَ**﴾ سورة الأنبياء، آية: ٨٣.

(٣) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩.

(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢؛ النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٣.

صحته مُحسِنًا عظم رجاؤه عند الموت وحَسُنَ ظنّه، وإذا كان في صحته مُسيئًا ساء ظنه عند الموت ولم يعظم رجاؤه»[1].

وقد ربط شمس الدين الذهبي تلك الظاهرة بحديث رسول الله (ﷺ)؛ «لا يَمُوتَنّ أحَدَكُم إلاّ وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله»[2].

والجدير ذكره؛ أنه أثناء تأرجح الفُضَيل بين النزع الأخير وصحوة الموت، كان لا يفتر عن لومه نفسه وعتابه لها، فلعلّه في تلك اللحظات، بدأ يتشكّك في صدق ما كان عليه من خوف وزهد وعبادة، فسُمِع يقول:

«لو قلت إنك تخاف الموت ما قبل منك، لو خفت الموت ما نفعك طعامٌ ولا شراب، ولا شيء من الدنيا، ولو عرفت الموت حقّ معرفته ما تزوّجت ولا طلبت الولد»[3]. وقال: «ما يسرُّني أن أعرِفَ هذا الأمر حقَّ معرفته إذًا لطاش عقلي، ولم أنتفع بشيء»[4].

وظلّ في أيامه الأخيرة يذكر الموت ولما كان يغرب عن تفكيره للحظات، كان ينبّه نفسه ويقول: «ويحك يا فُضَيل! أما

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٩.

(٢) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٣، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، حديث (٢٨٧٧)، في الجنة وصفة نعيمها وأهلها. من حديث جابر بن عبد الله أنه سمع النبي (ﷺ) قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يُحسِن الظنّ بالله عزّ وجل».

(٣) الحلية، ج ٨، ص ٨٥.

(٤) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٥٣٢.

تذكر الموت؟ أما للموت في قلبك موضع؟ أما تدري متى تؤخذ فيُرمَى بك في الآخرة فتصير في القبر وضيقه ووحشته، أما رأيت قبرًا قطّ؟ أما رأيت حين دفنوه؟ أما رأيت كيف سلّوه في حُفرته وهالوا عليه التراب والحجارة؟»[1].

بعد ذلك كان يعود إلى صراعه الداخلي، واستصغار شأنه، فيقول: «تريد الجنة مع النبيّين والصدّيقين، وتريد أن تقف الموقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، بأيّ عمل؟ وأيّ شهوة تركتها لله عزّ وجل؟ وأيّ قريب باعدته في الله؟ وأيّ بعيد قرّبته في الله؟»[2].

وكان أصحابه من حين لآخر يسألونه عن حاله للاطمئنان عنه، فكان يجيبهم بأسى وحزن عميقين، فلما قال له أحدهم: «كيف أصبحت يا أبا علي؟ - فكان يثقل عليه كيف أصبحت، وكيف أمسيت - فقال: في عافية، فقال: كيف حالك؟ فقال: عن أيّ حال تسأل؟ عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنت تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة فكيف ترى حال مَن كثرت ذُنُوبُه، وضَعُفَ عملُه، وفَنِيَ عمرهُ، ولم يتزوّد لمَعاده، ولم يتأهّب للموت، ولم يخضع للموت، ولم يشمّر للموت، ولم يتزيّن للموت، وتزيّن للدنيا، هيه...»[3].

---

(1) الحلية، ج ٨، ص ٨٦.
(2) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٠- ٩١.
(3) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٥ - ٨٦؛ قابل: أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٠.

ومما يرفع من قدر الفُضَيل؛ أنه وهو في هذه الحالة ظلّ وفيًا لمهمة الأمر والنهي، ولم يخذله لسانه خلال تبليغه الموعظة والنصيحة، فهو مصمّم على تأدية رسالته حتى اللحظة الأخيرة، فسمع ينشد:

إنّا لنفرح بالأيام ننفقها
وكلّ يوم مضى نقص من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا
فإنما الربح والخسران في العمل[١]

من جهة أخرى، نجد أن أُمنية الفُضَيل في بُعده عن الناس لم تتحقّق، ففي حين كان يتمنى أن يمرض بلا عُوَّاد[٢] تبيّن لنا أن الكثيرين كانوا يتشوّقون للدخول عليه، قال عُبيد الله بن عمر: «دخلت أنا ويحيىٰ بن سليمان على الفُضَيل نعودُه، فقال: زَوّجك وخوّلك وصَرَف وجوهَ الناس إليك، وأنت تشغلك عنه، مَنْ أنت وما أنت؟ ثم شهق شهقة، وأضجعه رجل كان عنده[٣]، وغطّى عليه ثوبًا وهو لا يعقل، ونزلنا»[٤].

وفي صحوته الأخيرة تحمّس أحد إخوانه وسأله عن وصيّته، فقال: «لا تجعل الرجالَ أوصياءَك، كيف تلومُهم أن يُضيّعوا

---

(١) طبقات الأولياء، ص ٢٦٨.
(٢) طبقات السلمي، ص ١٢.
(٣) أظنه خادمه إبراهيم بن الأشعث.
(٤) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٦٢.

وصيّتك، وأنت قد ضيّعتها في حياتك، وأنت بعد هذا تصير إلى بيت الوحشة وبيت الظلمة، وبيت الدود، ويكون زائرك فيها منكرًا ونكيرًا وقبرك روضة من رِياض الجنة أو حُفرة من حُفَر النار، ثم بكى وقال: أعاذنا الله وإيّاكم من النار»[1]، ثم تأوّه وقال: «أوه، كم من قبيح يكشف يوم القيامة غدًا»[2]. ثم استسلم للقاء ربّه.

والثابت لدينا؛ أنه توفي بمكة في المحرّم سنة ١٨٧/ ٨٠٣[3]، وقبره بالأبطح[4] مشهور مزور[5]، وقد زاره ابن حبّان البستي مرارًا[6].

أما بالنسبة لتحديد عمره؛ فقد اختلفت المصادر في ذلك، فمنها قال: «إنه قارب الثمانين»[7]، ومنها قال: «إنه جاوز الثمانين»[8]، والبعض الآخر حسم الخلاف وحدّد عمره بثمانين سنة فقط[9].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ٨٧؛ أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٢.
(٢) الكواكب، ج ١، ص ١٤٦.
(٣) طبقات ابن سعد، ج ٥، ص ٥٠١؛ البخاري، التاريخ الكبير، ج ٧، ص ١٢٣، يعقوب الفسوي، المعرفة والتاريخ، ج ١، ص ١٧٩؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٩؛ وحدّدها الذهبي في يوم عاشوراء، تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.
(٤) بين مكة ومنى. (معجم البلدان، ج ١، ص ٩٥).
(٥) شذرات الذهب، ج ١، ص ٣١٨.
(٦) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٩.
(٧) الذهبي، دول الإسلام، ص ١٠٦.
(٨) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦؛ الجواهر المضيّة، ج ١، ص ٤١٠.
(٩) تهذيب الخزرجي، ص ٢٦٤.

غير أننا لو رجعنا إلى تصريحات الفُضَيل بما يخصّ تحديد سِنّه؛ نجده لا يقدر على الجزم في هذا الأمر، عن ذلك تحدّث أصحابه فقالوا: «كنّا جلوسًا عند الفُضَيل بن عِياض، فقلنا له: كم سِنُّك؟ فقال:

بَلَغْتُ الثَّمَانِينَ أو جُزْتُها
فَمَاذَا أُؤمِلُ أَوْ أَنتَظِرْ
عَلَتْني السُّنُونُ فأبلَيْنَني
فَرق العِظَامُ وكَلَّ البَصَرْ[1]

وقبل أن نُنهي هذه الناحية؛ من المفيد أن نذكر أن ردّات الفعل التي حصلت بعد وفاة الفُضَيل قد غابت في المصادر، وبالتالي لم نعثر على ما قيل في رثائه بالمقارنة مع ما ذكر في نهاية سفيان الثّوري[2]، وعبد الله بن المبارك[3]، وسفيان بن عُيينة[4]، وكلّ ما وقعنا عليه هو ما حدّث به أبو بكر بن عفّان فقال: «سمعت وكيعًا - يعني ابن الجرّاح - يوم مات الفُضَيل بن عِياض يقول: «ذهب الحزن اليوم من الأرض»[5].

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٢.
(٢) انظر: سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ، ص ٢٠٦ وما بعدها.
(٣) انظر: الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ص ١٣٢ وما بعدها.
(٤) انظر: سفيان بن عُيينة محدّث الحرم المكّي، ص ١٩٦ وما بعدها.
(٥) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٨.

٢ـ رؤى الناس للفُضَيل:

إن حياة الفُضَيل المليئة بالعبادة والتقوى ونكران الذات، قد تركت أثرًا رائعًا في نفوس مُعاصِريه، وبعد أن هزّتهم صدمة موته عاودتهم تلك الصورة التي كانوا يحفظونها له، وترجمت في داخلهم إلى أحلام نقيّة ترفع من قدره وتعزّز مكانته.

قال علي بن الحسن: «. . .لقد رأيتُه في المنام قائمًا على صندوق يُعطي المصاحف، والناسُ حوله، فيهم: سفيان بن عُيينة، وهارون أمير المؤمنين، فما رأيتُه يودِّع أحدًا، فيقدر أن يُتمَّ وداعه»[١].

وحدّث ابنه محمد فقال: «رأيت أبي في المنام، فقلت: يا أبتُ ما صنع بك في العمر الذي كنت فيه؟ قال: لم أرَ للعبد خيرًا من ربّه»[٢].

وعلى ذمّة محمد بن زنبور أنه سمع رجلاً يقول: «رأيت فُضَيل بن عِياض في المنام، فقلت له: أوصِنِي، فقال: عليك بأداء الفرائض فإني لم أرَ شيئًا قطّ مثلها»[٣].

وأخرج الحافظ ابن عساكر عن بعض المكيّين: «رأيت سعد بن سالم القداح في النوم، فقلت: مَن أفضل مَن في هذه

---

(١) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٣.
(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١١١.

المقبرة؟ قال: صاحب ذاك القبر، قلت: بما فضله؟ قال: ابتلى فصبر، قلت: ما فعل فُضَيل؟ قال: هيهات كُسِيَ حُلّة لا تقوم لها الدنيا بحواشيها!»[1].

فهذه هي الصورة المُشرِقة في سِيرة الفُضَيل، فهو حاضر في أذهان أبناء مجتمعه حتى بعد موته، فهو الأمين على كتاب الله والخازن له، فيوزعه على مَن يشاء من الأئمة والخلفاء، وهو يُسدي النصيحة لأبناء الأمة، فيدعو الناس إلى التمسّك بالفرائض، وأكثر من ذلك فقد رضي الرحمن عنه وألبسه حُلّة من حُلَل الجنة.

وأخيرًا لا بدّ من الإشارة؛ إلى أنه إذا كان بعض النقّاد يرفضون هذه الناحية، فلا بدّ أن نقرّ بواقع المجتمعات المخلصة لأعلامها، والتي لها ملء الحرية للتعبير عن حبّها ووفائها وتكريمها لرجالاتها. وحتى لا نقع في إحراج ونتعرّض لعملية نقد عمدت إلى نقل موضوع كرامات الفُضَيل إلى الملاحق[2]، لعلّ القارىء الكريم يجد فيها مبتغاه.

٣ـ تقويم الفُضَيل استنادًا لشهادات مُعاصِريه:

تتّضح حقيقة الفُضَيل بن عِياض، وتألّقه بين رجالات الأمة من خلال الموقع الذي تبوّأه في المجتمع الذي عايشه، ونحن لا نستطيع أن نحكم على الفُضَيل أو نقوّمه بمعزلة عن شهادات وآراء

---

(١) الكواكب، ج ١، ص ١٥٠.
(٢) ملحق رقم (٢).

كبار الأئمة المُعاصرين له، لأن هؤلاء السادة هم صفة الصفوة التي تنقل لنا الصورة الواقعية بأمانة وتجرّد متناهيين.

ولعلّ أول ما يطالعنا في هذا الصدد هو رأي الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك الذي قال: «خير الناس - يعني في ذلك الوقت - الفُضَيل وخير منه ابنه علي»[1]. وسمع يقول لأبي مريم القاضي: «ما بقي في الحجاز أحدٌ من الأبدال[2] إلاّ فُضَيل بن عِياض وابنه علي...»[3]، وقال في مناسبة أخرى، لعلّه بعد موت عليّ: «ما بقي على وجه الأرض أفضل من الفُضَيل»[4].

وإذا كانت هذه شهادة إمام مأمون ثقة، وربما تربطه بالفُضَيل علاقة أدبية، فكيف هو موقف حكّام الأمة من هذا الرجل؟

لقد أجاب النضر بن شميل على هذه التساؤلات، فقال: سمعت هارون الرشيد يقول: «ما رأيت في العلماء أهيب من مالك، ولا أورع من الفُضَيل»[5]. وبشهادة المأمون أن والده الرشيد قال له: «ما رأت عيناي مثل فُضَيل بن عِياض»[6].

---

(١) الخزرجي، ص ٢٣٤؛ قابل: تهذيب ابن حجر، ج ٧، ص ٣٧٣.

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحدٌ منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر، والواحد بديل (مختار الصحاح، ص ٤٤).

(٣) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٥.

(٤) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٥؛ العِبَر، ج ١، ص ٢٩٨؛ تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.

(٥) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٥؛ تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.

(٦) أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٣٨.

وإذا ما تركنا الموقف النظري لتقدير الفُضَيل وتبجيله، وبحثنا في الموقف العملي نجد سفيان بن عُيينة محدّث الحرم المكّي هو السبّاق للتعبير عن مكانة الرجل.

قال إبراهيم بن الأشعث: «رأيت سفيان بن عُيينةُ يُقبّل يدَ الفُضَيل مرتين»[1].

وبعد هذه الوقفة المتأنّية؛ لا بأس لو استعرضنا مواقف سائر الأئمة والعلماء والمؤرّخين من الفُضَيل، لأنه من خلال ذلك نرى مدى التطابق أو التناقض في الآراء. وبالتالي نستفيد من هؤلاء الأعلام الذين لا بدّ أنهم تعمّقوا في سيرة الفُضَيل قبل إصدار أحكامهم عليه.

قال عبد الله بن عمر القواريري: «أفضل مَن رأيت من المشايخ فذكره فيهم ثانيًا»[2]، وقال شريك القاضي: «لم يزل لكل قوم حجّة في أهل زمانهم، وإن فُضَيل بن عِياض حجّة لأهل زمانه»[3].

وقد لخّص ابن حبّان البستي ما كان عليه الفُضَيل، فقال: «أقام بالبيت الحرام مجاورًا مع الجهد الشديد والورع الدائم، والخوف الوافر، والبكاء الكثير، والتخلّي بالوحدة، ورفض الناس وما عليه أسباب الدنيا إلى أن مات»[4].

---

(١) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.
(٢) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٥.
(٣) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٦.
(٤) تهذيب ابن حجر، ج ٨، ص ٢٩٦.

وقوّمه المؤرّخ شمس الدين الذهبي بقوله: «كان الفُضَيل إمامًا ربّانيًا حمدانيًا قانتًا ثقة كبير الشأن»[1].

وقد أشار الصميري إلى أهميته وعظمته فقال: «إنه أخذ الفقه[2] عن أبي حنيفة، وروى عنه الإمام الشافعي، فأخذ عن إمام عظيم، وأخذ عنه إمام عظيم وهو إمام عظيم»[3].

وخير ما نختتم به تقويم الفُضَيل، ما ذكره الخليفة هارون الرشيد، فقال فيه بعد أن خَبِرَه عن قُرْب: «هذا سيّد المسلمين»[4].

---

(1) تذكرة الحفّاظ، ج ١، ص ٢٤٥.

(2) لم يشر إلى فقه الفُضَيل سوى الذهبي والصميري (الكواكب ج ١، ص ١٥٠).

(3) الجواهر المضية، ج ١، ص ٤٠٩.

(4) صفة الصفوة، ج ٢، ص١٦٤؛ كتاب التوّابين، ص ١٧٠.

خاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع الزاهد الفُضَيل بن عِياض، إمام الحرم المكّي وشيخ الحجاز، والذي عاش حوالي ثمانية عقود من الزمان، تبيّن لنا أنه كان شخصية غير عادية إذا ما قارنّا ذلك بسائر الشخصيات التي درسناها سابقًا، فهو لم يبدأ حياته كغيره من أئمة الحديث في بيئة علم وورع أمثال: «سفيان بن سعيد الثوري وشُعبة بن الحجّاج الأزدي وسفيان بن عُيينة الهلالي» وغيرهم. كما وأن المصادر لم تُشِر إلى إقباله على حفظ القرآن الكريم وهو في سنّ الطفولة، وإنما كان، وبحسب كتب التراث، متشرّدًا ضالاً يقطع الطرق على الناس ويزرع الرعب في قلوب المسافرين.

غير أنه بعد بلوغ مرحلة الشباب أو «الكبر»؛ انتقل، وفي ظروف غامضة، إلى موطنه الأصلي في الكوفة. وهناك خطا الخطوة الأولى والأهم في حياته، فتاب إلى ربّه، وأقبل على علم الحديث، فسنحت له الظروف لأن يلتقي أعلام المحدّثين، فأخذ عنهم الأحاديث الصحاح ورواها عنهم بصدق وأمانة، ثم تلقفها منه سادة المحدّثين ورَووا عنه بفخر واعتزاز حتى ذهب صِيتُه في

الناس وأصبح سيّدًا من السادات وأحد العلماء الأعلام، وعلى الرغم من ذلك؛ فقد قرّر عدم الاستمرار في عطائه والتنازل عن شُهرته، فاعتزل أصحاب الحديث لارتيابه في سلوكية عُلمائهم الذين حادوا عن سيرة الصحابة والسّلَف الصالح.

وبعد ذلك؛ زهد الفُضَيل بكل شيء، ثم أقبل على العبادة والتأمّل والمناجاة، وأخيرًا؛ قرّر الرحيل إلى مكة لمجاورة البيت العتيق، حيث ترقّت به الأحوال وحمل لقب «شيخ الإسلام» إبّان دخوله في عُزلته الكبرى. وقد شاع بين الناس خبر مقاطعته لسائر مُعاصِريه الخاصّة منهم والعامّة.

ولا ريب؛ أن الفُضَيل قد مرّ بجميع تلك المراحل، وانتقل من حالة إلى أخرى بمحض إرادته، وعن قناعة شخصية وإيمان ثابت، وهذا الأمر يتطلّب منه الكثير من الإرادة ومجاهدة النفس، فليس من اليسير على المرء أن يتخلّى عن الحياة السهلة؛ بما فيها من تهتّك ومجون وتبلّد بالضمير وتحلّل من المقدسات، ثم ينتقل فجأة إلى الصفوف الأمامية ويتحمّل كامل المسؤولية ويصبح في عداد الأوائل وقُدوة للآخرين.

فبعد أن تمادى الفُضَيل في غيّه وأخذ نصيبه من الدنيا، وجد أن هذه الطريق ليست ضالّته المنشودة، فأقلع عن ذلك واختار طريق العلم لعلّه يصله إلى شاطىء الأمان، فلما بلغ مركز الشُّهرة وجد أنه لم يحقّق مبتغاه، فزهد في العلم والعلماء مثلما زهد من قبل بالضلال والفساد، واقتنع بصلابة أن أسمى تلك المراحل هي مرحلة الخلوة بالخالق، والتأمّل بعظمته والتلاشي في ذات الله عزّ

وجل، ففي ذلك ترقى النفس إلى أرفع مراتبها، وتُكَفّر بالتالي عن دنس المادة وآثامها.

وبلا شك؛ كان الفُضَيل نموذجًا في العبادة والتقوى، وفي إقباله على فريضة الحج وعنايته بكتاب الله العزيز، ومقاومته لأهل البِدع، كما كان مثلاً صادقًا في الزهد والورع. ولكن ذلك كله لم ينجه من الهجمة العنيفة التي تعرّض لها بسبب تركه قضية الجهاد في سبيل الله، الذي يأتي في الأهمية بعد الإيمان بالله عزّ وجل وبرسوله (ﷺ).

ومما يعزّز موقف الرجل مواقفه الاجتماعية والسياسية؛ التي أثبت من خلالها على أنه كان خبيرًا اجتماعيًا ماهرًا، بدليل أنه لم يترك مرضًا اجتماعيًا أو آفة خُلُقية، إلاّ وتناولها من قريب أو بعيد. كما وكان مثلاً يُحتذَى به في تعامله مع كبار القوم وحكّام الأمة. فأثبت من خلال علاقته بهم؛ بأنه كان يتمتع بشجاعة أدبية، وقدرة على المواجهة، وجرأة على إبداء الرأي الحرّ البعيد كل البعد عن المهادنة والمداراة.

وهذا كله رفع من سُهمان الفُضَيل، الذي تركت وفاته أثرًا مؤلمًا في نفوس مُعاصِرِيه، فترجموا مشاعرهم نحوه بُرؤًى جميلة له، كما قدّروه حقّ قدره ونعتوه بكل خير، فهو من الأولياء، وهو من الأبدال، وهو أحد صلحاء الدنيا وعبّادها.

ومما يشرّف الرجل أيضًا: أن تأثيره في الناس ظلّ ساريًا لقرونٍ عديدة، بدليل أن بعض الرجال الصالحين كانوا يوصون بأن

يُدفَنوا عند قبره تبرّكًا به وبتربته[1]. كما وإن اهتمام المصادر الأصيلة به وبخاصّة كتب الطبقات أمثال: «طبقات ابن سعد، وطبقات خليفة بن خيّاط، وطبقات الطوسي»، التي لم تَسْهَ عن ذِكْره في عداد رجالاتها هي خير دليل على مكانته وعلوّ كعبه بين العلماء.

ويبقى أن نشير إلى أن هذا النوع من الدراسات ليس المقصود به الدعوة إلى الزهد أو العُزلة، وإنما هي دعوة مخلصة لاستخلاص العِبرة من سِيَر الرجال الأعلام، وبالتالي تخليدهم في ضمير الأمة بعد الاستفادة من تاريخهم ونضالاتهم.

وهذا ما هدفنا إليه فعلاً، وما نتمنى أن نحقّقه من خلال مواكبة الفُضَيل بانتقاله من الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشك إلى اليقين.

كذلك ندعو لأخذ العبرة من خلال ترك الفُضَيل للجهل والتخلّف، وإقباله على العلوم ينهل من المعارف التي سَمَت به إلى أعلى المراتب.

وبعد، أليس من هدف نبيل نحقّقه ونحن نصوّر الفُضَيل في وقفته المشرّفة وشجاعته الأدبية في وجه الحكّام لردعهم عن الظلم

---

(١) ذكر أن أبا بكر الزاهد كان يتمنى أن يُدفَن عند قبر الفُضَيل بن عِياض، فلما مات سنة ٥٠٣/١١٠٩ دفن يوم النحر عند قبره. (أبو الفرج بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٩، ص ١٦٤، حيدرآباد، الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ؛ شذرات الذهب، ج ٤، ص ٦).

والجور، والأخذ بيدهم وحثّهم على نشر العدل والمساواة بين الرعية؟

فمن خلال هذه الأمور وغيرها؛ نضع أبناء الأمة أمام مسؤولياتهم التاريخية في مواجهة القضايا الهامّة التي تعترض مسيرتنا على شتّى الصُّعُد.

وبعد؛ أرجو أن تكون هذه الدراسة حافزًا للباحثين في التراث الأصيل، لعلّهم يعملون على التنقيب عن الأعلام المَنسيّين في بطون المصادر. وبذلك يقدّمون خدمة خالصة لأبنائنا المتعطّشين لمعرفة سِيَر روّاد العلم، وبالتالي يُساهمون في إعادة إحياء أعلام «الفقهاء والمحدّثين» ليتبوّأوا مكانتهم الصحيحة في تاريخنا الاجتماعي والسياسي.

ملحق رقم (١)

جرأة الفُضَيل بين يدي الخليفة هارون الرشيد[*]

قال الفُضَيل بن الربيع[١]:

حجّ أمير المؤمنين هارون الرشيد. فبينا أنا نائم بمكة إذ سمعت قرعَ الباب، فقلت: مَن هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين. فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إليّ لأتيتك. فقال: ويحك، قد حلّ في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: هٰهنا سفيان بن عُيينة. فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت الباب، فقال: مَن ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين،

(*) القصة وردت في صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٦١ـ ١٦٤؛ وكتاب التوّابين، ص ١٦٤ـ ١٧٠؛ وفي أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢٨ـ ٤٣١.

(١) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس، كان يخلف أباه الربيع في حجابة المنصور، وخدم الرشيد، وأغراه بالبرامكة حتى نكبهم، واستوزره من بعدهم، ولما ولي الأمين أقرّه على وزارته فأغراه بأخيه المأمون، وأشعل الفتنة بينهما، مات بطوس سنة ٢٠٨/ ٨٢٣. (الفخري، ص ١٧٧، ٢٠٥، ٢١٠؛ الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٤٨).

فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إليَّ لأتيتُك. فقال له: خُذ لما جئناك له ـ رحمك الله ـ فحدّثه ساعة، ثم قال له: عليك دَينٌ؟ قال: نعم. قال: اقضِ دَينَه.

فلما خرجنا، قال: ما أغنى عنّي صاحبَك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله. فقلت: هـٰهنا عبد الرزّاق بن همام. فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعتُ عليه الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إليّ لأتيتك. قال: خذ لما جئناك له ـ رحمك الله ـ فحادثه ساعة، ثم قال: أعليك دَينٌ؟ قال: نعم. قال: يا عباسي! اقضِ دَينهُ.

ثم انصرفنا، فقال لي: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً. قلت: هـٰهنا الفُضَيل بن عِياض، فقال: امضِ بنا إليه. فأتيناه وإذا هو قائم يُصلّي يتلُو آية من القرآن يُردِّدُها. قال: اقرع الباب! فقرعته. فقال: مَن هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين! فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلتُ: سبحان الله! أما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغُرفة فأطفأ السِّراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت.

فدخلنا فجعلنا نجولُ عليه بأيدينا، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه، فقال: يا لَهَا من كفٍّ ما ألْيَنَها إن نَجَت غدًا من عذاب الله! فقلتُ في نفسي: لَيكلِمَنَّه الليلة بكلام نقيٍّ من قلب تقيّ. فقال له: خذ لما جئناك له ـ رحمك الله ـ. فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما وَلِيَ الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حَيْوَة، فقال لهم: قد ابتُليت بهذا البلاء،

فأشيروا عليّ. فعدّ الخلافة بلاءً، وعدَدتها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله: إن أردتَ النجاة من عذاب الله فَصُم الدنيا وليكن إفطارُك منها الموت. وقال له محمد بن كعب: إنْ أردت النجاة من عذاب الله فليكنْ كبيرُ المسلمين عندك أبًا، وأوسطُهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقّر أباك، وأكرِم أخاك، وتحنّن على ولدك. وقال له رجاء بن حَيْوَة: إن أردت النجاة من عذاب الله، فأحبّ للمسلمين ما تُحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثمّ مُتْ إذا شئت.

وإني لأقول لك هذا، وإني لأخاف عليك أشدّ الخوف في يوم تزلُّ فيه الأقدام! فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هؤلاء مَن يُشير عليك أو يأمرك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديدًا حتى غُشِي عليه. فقلتُ له: ارفُقْ بأمير المؤمنين. قال: يا ابن أُمّ الربيع! تقتُله أنت وأصحابُك وأرفُقُ به أنا؟ ثم أفاق، فقال: زدني ـ رحمك الله ـ!.

فقال: بلغني، يا أمير المؤمنين، أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكِيَ إليه. قال: فكتب إليه عمر: يا أخي! اذكُرْ طول سهر أهلِ النار في النار مع خلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى باب الربّ نائمًا ويقظان، وإياك أن يُنصرَف بك من عند الله فيكون آخر العهد ومُنقطع الرجاء. قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قَدِمَ على عمر. فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا وَليتُ لك ولاة حتى ألقى الله. فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال له: زدني ـ رحمك الله ـ!.

فقال: يا أمير المؤمنين! إن العباس، عمّ المصطفى (ﷺ)، جاء إلى النبي (ﷺ)، فقال له: أمّرني، فقال له النبي (ﷺ): «يا عباس؟ يا عمّ النبي! نفس تنجيها خيرٌ من إمارة لا تحصيها، إنَّ الإمارة حَسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تتأمّرن على أحد فافعل»[1]. قال: فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال له: زدني - رحمك الله -!.

قال: يا حسنَ الوجه! أنت الذي يسألُك الله عن هذا الخلقِ، فإن استطعت أن تَقِيَ هذا الوجه من النار فافعل، وإياكَ أن تُصبح وتُمسي وفي قلبك غشّ لرعيّتك، فإن النبي (ﷺ) قال: «مَن أصبح لهم غاشًا لم يَرِحْ رائحة الجنّة»[2].

فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال: عليك دَينٌ؟ قال: نعم، دينٌ لربّي لم يحاسبني عليه، فالويلُ لي إن سألني، والويلُ لي إن ناقشني، والويلُ لي إن لم أُلهَم حجّتي! قال: فقال: إنما أعني من دَين العباد. قال: إن ربّي لم يأمرني بهذا، إن ربّي أمرني أن أصدق وعده وأُطيع أمره، فقال: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيعبُدُون وَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزقٍ وما أُريدُ أن يُطعِمُون إنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾**[3]. فقال له: هذه ألفُ دينار، خذها فأنفِقها وتقوَّ بها على

---

(١) أخرجه مسلم حديث (١٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: «مَن استرعى رعيته فلم ينصح»؛ ومسلم حديث (١٤٢) في الإيمان: باب: «استحقاق الوالي الغاشّ لرعيّته النار».

(٣) سورة الذاريات، آية: ٤٦ـ ٥٨.

عبادة ربك. فقال: يا سبحان الله! أنا أدلّك على النجاة وأنت تُكافئني بمثل هذا؟ ـ سلّمك الله ووفّقك. ثم صمت، فلم يُكلّمنا. فخرجنا من عنده، فلما أن صرنا على الباب، قال لي هارون: يا عباسي! إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيِّد المسلين اليوم.

قال غير أبي عمر[1]: فبينا نحن كذلك إذ دخلت عليه امرأة من نسائه، فقالت: يا هذا، قد ترى سوء ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال تُفرِجنا به وقال: مَثَلِي ومَثَلُكُم كمَثَلِ قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبهِ، فلما كَبِر نحروهُ وأكلوا لحمه. فلما سمع هارون الكلام، قال: نرجع فعسى أن يقبل المال. قال: فدخل. فلما علم فُضَيل، خرج فجلس على تراب في السَّطح على باب الغرفة، وجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يُكلّمه فلم يُجبه. فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا! قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف ـ رحمك الله ـ. قال: فانصرفنا.

---

(١) أي من الرواة، وأبو عمر هو الجوني المذكور في سند القصة.

ملحق رقم (٢)
من كرامات الفُضَيل بن عِياض

قبل أن نستعرض جانبًا من كرامات الفُضَيل؛ نلفت النظر إلى أن الكرامات قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوانِ فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمان عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليص من عدو أو سماع خطاب من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقصة للعادة.

والواضح؛ أن أبا القاسم القشيري قد أقرّ بظهور الكرامات على الأولياء، فهي وبحسب رأيه؛ علامة صدق مَن ظهرت عليه في أحواله[١]. ولقد تكلّم الناس في الفرق بين الكرامات وبين المعجزات من أهل الحق، فكان الإمام أبو إسحٰق الإسفرائيني يرى «أن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ودليل النبوّة لا يوجد مع غير النبي»، وأما الأولياء فلهم كرامات مثل إجابة الدعاء في حين أن المعجزات هي للأنبياء وحدهم[٢].

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ١٥٨.
(٢) المكان نفسه.

وقد أكّد القاضي أبو بكر الأشعري هذا الأمر فقال: «إن المعجزات تحضّ الأنبياء والكرامات تكون للأولياء...»[1]، ويأتي أبو بكر بن فورك على ذكر فوارق أخرى لاحظها بين المعجزات والكرامات وبين الأنبياء والأولياء فقال: «الفرق بين المعجزات والكرامات؛ أن الأنبياء (ع) مأمورون بإظهارها ـ أي المعجزات ـ والوليّ يجب عليه سترها وإخفاؤها ـ أي الكرامات ـ»[2].

وبالعودة إلى الفُضَيل؛ نجده كان أحد أئمة السّلَف الصالح وأكابر العارفين منهم، وهو من الشُّهرة وحُسْن الذكر وكثرة تداول التسمية في كتب التصوّف وغيرها، بحيث من كراماته، كما روى أبو عبيد الله إبراهيم الهروي أنه كان مع الفُضَيل على جبل أبي قبيس[3]، فقال: «لو أن الرجل صدق في التوكّل على الله وقال لهذا الجبل اهتزّ لاهتزّ. قال: فوالله لقد رأيت الجبل اهتزّ وتحرّك. فقال: ما هذا؟! إني لم أعِنْك رحمك الله، قال: فسكن»[4].

كذلك؛ كان الفُضَيل مُجاب الدعوة، قال عبد الله بن محمد الهباري: «اعتلّ فُضَيل بن عِياض فاحتبس عليه البول، فقال: بحبّي إيّاك لما أطلقته. قال: فبالَ»[5].

(١) الرسالة القشيرية، ص ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨ـ ١٥٩.
(٣) أبو قبيس: هو الجبل المشرف على مكة من جهتها الشرقية (معجم البلدان، ج ١، ص ١٠٣).
(٤) الجواهر المضية، ج ١، ص ٤٠٩؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج ٢، ص ٢٣٥، بيروت: دار صادر، د.ت..
(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٠٩؛ الكواكب الدرية، ج ١، ص ١٤٦.

وعن دعائه المُستَجاب حدّث هارون بن سوار فقال: «هلك حمار لفُضَيل بن عِياض وكان له حمار يستقي عليه الماء فيأكل من فضله، قال: فقيل له: قد هلك الحمار، فقعد في المِحراب ثم قال: قد أخذنا عليه مجامع الطرق؛ قال: فجاء الحمار فوقف على باب المسجد»[1].

وقال أبو بكر الأعين: «كان الفُضَيل جالسًا وعنده رجل فقال له الرجل: يا أبا عليّ أسمع منك همهمة، فمَن تكلّم؟ قال: عمّار دارنا يسألون عن مسألة في أمر دينهم!»[2].

---

(١) الجواهر المضية، ج ١، ص ٤٠٩.
(٢) المكان نفسه.

ملحق رقم (٣)
بعض الأحاديث التي رواها الفُضَيل بسنده عن رسول الله (ﷺ)

(مختارة من تسعين حديثًا جمعها أبو نعيم في الحلية، ج ٨، ص ١١٤ ـ ١٣٩)

ففي حُسْن الخلق بما في ذلك: الرحمة، والشعور مع الآخرين، والبُعْد عن الكذب وعن سُباب المسلم وقتاله اخترنا الأحاديث التالية:

* حدّث الفُضَيل بسنده عن الرسول (ﷺ) قال: «مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله عزّ وجل»، صحيح ثابت[1].

* عن أبي سعيد الثّوري عن النبي (ﷺ) قال: «مَن أطعم مسلمًا جائعًا أطعمه الله من ثمار الجنة». غريب من حديث الفُضَيل[2].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١١٥؛ أخرجه الترمذي في كتاب «البرّ والصلة» باب (١٦)؛ وأحمد بن حنبل في المسند، ج ٢، ص ٢٦٩ (ط. القاهرة: ١٣١٣هـ).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٣٤؛ والحديث أخرجه البخاري في «الأطعمة» باب (١) و«المرضى» باب (٤)؛ أبو داود الطيالسي، المسند، حديث ٤٨٩، حيدرآباد، ١٣٢١هـ.

* عن علي بن أبي طالب عن رسول الله (ﷺ) قال: «مَن كذب عليَّ معتمدًا فليتبوّأ مقعده من النار». عزيز من حديث الفُضَيل[1].

* عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله (ﷺ): «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر». صحيح ثابت، متّفق عليه[2].

وفي حال لم يمتثل المرء لذلك؛ فسينزل به الجزاء عاجلاً أم آجلاً. فعن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله (ﷺ): «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء». عزيز من حديث فضيل[3].

وفي دعوة الرسول (ﷺ) إلى الصلاة والحجّ والدعاء والتعوّذ؛ قال الفُضيل:

* عن جابر بن عبد الله قال رسول الله (ﷺ): «ليس بين الكفر والإيمان إلاّ ترك الصلاة». ثابت مشهور[4].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص ١١٩؛ أخرجه البخاري في «العلم» باب (٣٨)، وكتاب «الجنائز» باب (٣٤)، وكتاب «الأنبياء» باب (٥٠).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٢٣؛ أخرجه البخاري في «الإيمان» باب (٣٦) و«الأدب» باب (٤٤)؛ ومسلم في «الإيمان» حديث ١١٦، وسُنن أبي داود السجستاني في «الجهاد» باب (٩٥).

(٣) الحلية، ج ٨، ص ١١٩، أخرجه البخاري في «المرضى» باب (١ ـ ٣) و(١٣ ـ ١٤)؛ ومسلم في «البر والصلة»، ج ٤٥ ـ ٥٣.

(٤) الحلية؛ ج ٨، ص ١٢١؛ أخرجه البخاري في «الإيمان» و«الصلاة»؛ ومسلم في «الإيمان».

* عن أبي هريرة قال النبي (ﷺ): «مَن حَجَّ هذا البَيت فلم يَرْفُث[1] ولم يفسُق رجعَ كيوم وَلَدَتهُ أُمُّهُ». صحيح متّفق عليه حدّث به الثّوري وشُعبة عن منصور[2].

* عن النعمان بن بشير قال الرسول (ﷺ): «الدعاء هو العبادة لأن الله تعالى يقول: ﴿ادعوني أستجِب لكم﴾[3]»[4].

* عن عائشة قالت: «ما سمعت النبي (ﷺ) يصلّي صلاة إلاّ وهو يتعوّذ من عذاب القبر». ثابت مشهور من حديث منصور[5].

وفي النصيحة والفتوى قال الفُضَيل عن رسول الله (ﷺ):

* عن ابن عمر عن النبي (ﷺ) قال: «ما حقّ امرىء مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين إلاّ ووصيّته مكتوبة عنده». عزيز من حديث فُضَيل[6].

---

(١) الرفث: الفُحش من القول (مختار الصحاح، ص ٢٥٠).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٢٦؛ أخرجه البخاري في «المُحْصَرُ» باب (٩ـ ١٠)؛ ومسلم في «الحج» حديث ٤٣٨.

(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) الحلية، ج ٨، ص ١٢٠، أخرجه البخاري في «الجنائز» باب (٢)، ومسلم في «السلام» حديث ٤ و٥.

(٥) الحلية، ج ٨، ص ١٢٤؛ أخرجه البخاري في «الكسوف» باب٧، و«الجنائز» باب ٨٧ و٨٨؛ ومسلم في «المساجد» حديث ١٢٣ـ ١٣٤.

(٦) الحلية، ج ٨، ص ١٣٨؛ أخرجه البخاري في «الوصايا» باب (١)؛ ومسلم في «الوصية» حديث ١ ـ ٤.

* عن الشعبي عن عروة البارقي قال الرسول (ﷺ): «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، قيل: وما ذاك؟ قال: الأجْر والمَغنَم». مشهور من حديث الشعبي رواه عنه جماعة[1].

* عن سلمان قال رسول الله (ﷺ): «إذا أدركت كلبك وقد أكل بضعة فكُل». عزيز من حديث الفُضَيل. والصحيح ما رواه خيثمة عن عديّ بن حاتم أن النبي (ﷺ) قال: «إذا أكل الكلب فيها فلا تأكل منه، فإنما أمسكه على نفسه»[2].

وحدّث رسول الله (ﷺ) عن أهمية قريش وبما يخصّ أمّته فقال:

* الفُضَيل عن الأعمش بسنده: «الأئمة من قريش، ولي عليكم حقّ عظيم، ولهم مثل ذلك ما فعلوا ثلاثًا. إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وفوا، فمَن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». مشهور من حديث أنس[3].

---

(١) الحلية ج ٨، ص ١٢٧؛ أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» باب (٤٣ـ ٤٤)؛ ومسلم في «الزكاة» حديث ٢٥؛ وسُنَن أبي داود السجستاني، في «الجهاد» باب (٤١).

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٣٨؛ عن ذلك انظر البخاري: كتاب «الذبائح والصيد والتسمية»؛ ومسلم «الصيد».

(٣) الحلية، ج ٨، ص ١٢٣؛ أخرجه أبو داود الطيالسي في المسند، حديث ٩٢٦ و٢١٣٣.

* عن سلمان الفارسي قال: «إنما تهلك هذه الأمة من قبل نقض مواثيقها» غريب من حديث الفُضَيل[1].

وخير ما نختم به هذا الجانب؛ قول الفُضَيل عن منصور عن ربعي عن أبي مسعود الأنصاري عن رسول الله (ﷺ): «إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»». ثابت مشهور من حديث منصور[2].

---

(١) الحلية، ج ٨، ص١٣٤؛ أخرجه ابن حنبل، ج ٦، ص ١٣٣، ١٤٥، ٢٥٥؛ والطيالسي، حديث ٥٣٤.

(٢) الحلية، ج ٨، ص ١٢٤، أخرجه مالك بن أنس في الموطأ في «قصر الصلاة في السفر» حديث ٤٦ (ط. القاهرة: ١٢٧٩).

فهرس المصادر والمراجع

١ـ المصادر:

* القرآن الكريم.

* ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن إدريس (ت ٣٢٧/ ٩٣٨).

١ـ **كتاب الجرح والتعديل**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. صورة بالأوفست عن ط. دائرة المعارف العثمانية.

* ابن أبي الوفا، عبد القادر القرشي (٧٧٥/ ١٣٨٣).

١ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، ط ١، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٢ (وفي آخره ذيل الجواهر المضية).

* ابن الأثير، عزّ الدين علي بن محمد (٦٣٠/ ١٢٣٢).

١ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ط. مصر، ١٢٨٥هـ.

٢ـ **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، ١٩٨٢/ ١٤٠٢.

* ابن أنس، مالك (١٧٩/ ٧٩٥).

١ـ **الموطأ**، القاهرة: ١٢٨٩.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧/ ١٢٠٠).

١ـ **صفة الصفوة**، بعناية إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

٢ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، بعناية سالم الكرنكوري، حيدر آباد، الدكن: مط. دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩هـ.

* ابن حبّان البستي، أبو حاتم محمد (٣٥٤/ ٩٦٥).

١ـ **كتاب مشاهير علماء الأمصار**، بعناية فلايشهمر، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/ ١٩٥٩.

* ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢/ ١٤٤٩).

١ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، ط. مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.

٢ـ **تهذيب التهذيب**، حيدر آباد: الدكن. مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ـ ١٣٢٧هـ.

٣ـ **لسان الميزان**، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

* ابن حمدون، محمد بن الحسين (٣٠٩/ ٩٢٢).

١ـ **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس، ط ١، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣ـ ١٩٨٤.

* ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١/ ٨٥٥).

١ـ **كتاب الورع**، دون دار نشر، دون تاريخ.

٢ـ **المسند**، طبعة القاهرة: ١٣١٣هـ.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨/ ١٤٠٦).

١ـ **كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت: ١٩٥٧.

* ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١/ ١٢٨٢).

١ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس بيروت: دار الثقافة، د.ت.

* ابن سعد، محمد بن منيع (٢٣١/ ٨٤٥).

١ـ **كتاب الطبقات الكبرى**، بيروت: دار صادر، د.ت.

* ابن سلاّم الجُمحي، محمد (٢٣١/ ٨٤٥).

١ـ **طبقات الشعراء**، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٩.

* ابن شاهين، عمر بن أحمد (٣٨٥/ ٩٩٥).

١ـ **تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

* ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٩/ ١٣٠٩).
١ـ **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، بيروت: دار صادر، د.ت.

* ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (٣٢٧/ ٩٣٩).
١ـ **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٧٢/ ١٩٥٢.

* ابن عربي، محيي الدين (٦٣٨/ ١٢٤٠).
١ـ **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار**، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤/ ١٩٠٦.

* ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (١٠٨٩/ ١٦٧٩).
١ـ **شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب**، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

* ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦/ ٨٨٩).
١ـ **الإمامة والسياسة**، القاهرة: ١٣٢٧/ ١٩٠٩.
٢ـ **الشعر والشعراء**، ط ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.
٣ـ **عيون الأخبار**، ط ١، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨/ ١٩٣٠.
٤ـ **كتاب المعارف**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

* ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد (٦٢٠/ ١٢٢٣).
١ـ **كتاب التوّابين**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤/ ١٣٧٣).
١ـ **البداية والنهاية في التاريخ**، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠٩/ ١٩٨١.

* ابن ماجة، محمد بن يزيد (٢٧٥/ ٨٨٨).
١ـ **كتاب السُنن**، طبعة القاهرة، ١٣١٣.

* ابن معين، يحيىٰ (٢٣٣/ ٨٤٧).
١ـ **تاريخ يحيىٰ بن معين**، تحقيق عبد الله حسن، بيروت: دار القلم، (د.ت).

* ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي (٨٠٤/ ١٤٠٢).
١ـ **طبقات الأولياء**، تحقيق نور الدين شربيه، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

* ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم (٧١١/ ١٣١٢).
١ـ **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، دار بيروت، د.ت..

* ابن يزيد، أبو عبد الله محمد (٢٧٣/ ٨٨٦).
١ـ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد الحافظ، ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

* أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث (٨٨٨/٢٧٥).

١ـ **كتاب السُّنن**، طبعة القاهرة، ١٢٨٠هـ.

* أبو داود الطيالسي، سليمان بن داود (٢٠٤/ ٨٢٠).

١ـ **المسند**، طبع حيدر آباد، ١٣٢١هـ.

* أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (٤٣٠/ ١٠٣٩).

١ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

* الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦/ ٩٦٧).

١ـ **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد أحمد صقر، بيروت؛ مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨.

* البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦/٨٧٠).

١ـ **كتاب التاريخ الكبير**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

٢ـ **صحيح البخاري في (شرح فتح الباري)**، القاهرة: بولاق، ١٣٠١هـ.

* البلاذري، أحمد بن يحيىٰ بن جابر (٢٧٩/ ٨٩٢).

١ـ **فتوح البلدان**، بعناية رضوان رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨/١٣٩٨.

* الترمذي، محمد بن عيسى (٢٧٩/ ٨٩٢).

١ـ **كتاب السُّنن**، طبعة بولاق، ١٢٩٢.

* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/ ١٠٧١).

١ـ **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.).

٢ـ **شرف أصحاب الحديث**، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، نشرة دار إحياء السُّنّة النبوية (د.ت.).

* الخزرجي، صفيّ الدين، أحمد بن عبد الله (٩٢٣/ ١٥١٧).

١ـ **خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

* خليفة بن خياط، أبو عمرو الملقب شباب العصفري (٢٤٠/ ٨٥٥).

١ـ **كتاب الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد: مطبعة العاني، ١٣٨٧/ ١٩٦٧.

* الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢/ ٨٩٥).

١ـ **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيّال، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت..

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨/ ١٣٤٨).

١ـ **تذكرة الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة بالأوفست عن طبعة حيدر آباد، ١٣٧٥/ ١٩٥٥.

٢ـ **دول الإسلام**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

٣ـ **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحقّقين، بإشراف شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦.

٤ـ **العِبَر في خبر مَن عَبَر**، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ـ ١٩٦٣.

٥ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

* الرازي، محمد بن أبي بكر (بعد ٦٦٦/١٢٦٨).

١ـ **مختار الصحاح**، تحقيق لجنة من العلماء، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١/١٩٨١.

* السلمي، محمد بن الحسين (٤١٢/١٠٢١).

١ـ **طبقات الصّوفيّة**، تحقيق نور الدين شربيه، القاهرة، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٣٧٢/١٩٥٣.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١/١٥٠٥).

١ـ **طبقات الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٢ـ **كتاب أسماء المدلسين**، تحقيق محمود نصّار، ط ١، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢/١٩٩٢.

* الشعراني، عبد الوهاب (٩٧٣/ ١٥٦٥).

١ـ **الطبقات الكبرى**، المسمى «واقع الأنوار في طبقات الأخيار»، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩هـ.

* الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤/ ١٣٦٣).

١ـ **الوافي بالوفيات**، جـ ١٥، باعتناء بيرتدرانكة، فيسبادن: مرانزشتايز، ١٣٩٥/ ١٩٨٣.

* الصولي، محمد بن يحيىٰ، (٣٣٥/   ).

١ـ **أشعار أولاد الخلفاء**، نشرة جـ . هيورث . د.ت. ط ٢، بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

* الطوسي، محمد بن الحسن (٤٦٠/ ١٠٦٧).

١ـ **رجال الطوسي**، ط ١، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٠/ ١٩٦١.

* العجلي، أحمد بن عبد الله بن صالح (٢٦١/ ٨٧٤).

١ـ **تاريخ الثقات**، باعتناء عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥/ ١٩٨٤.

* الغزالي، أبو حامد محمد (٥٠٥/ ١١١٢).

١ـ **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

* الفسوي، يعقوب بن سفيان (٢٧٧/ ٨٩٠).

١ـ **كتاب المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد: مطبعة الإرشاد، ٤٦٥/ ١٠٧٣.

* القشيري، عبد الكريم بن هوازن (٤٦٥/ ١٠٧٣).

١- **الرسالة القشيرية في علم التصوّف**، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت..

* الماوردي، علي بن محمد (٤٥٠/ ١٠٥٧).

١- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨/١٩٧٨.

* مجهول...

١- **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم، تحقيق (de Goeje)، ط بريل، ١٨٧١.

* المسعودي، علي بن الحسين (٣٤٦/ ٩٥٧).

١- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.

* مسلم، بن الحجّاج النيسابوري (٢٦١/ ٨٧٤).

١- **صحيح مسلم**، طبقة بولاق ١٢٩٠.

* المناوي، عبد الرؤوف (١٠٣١/ ١٦٢٢).

١- **الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية**، باعتناء محمود حسن ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار ١٣٥٧/١٩٧٨.

* النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف (٦٧٦/ ١٢٧٧).

١- **تهذيب الأسماء واللغات**، تحقيق فرديناند وستنفلد، غوتينغن، ١٨٤٢- ١٨٤٧.

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦/ ١٢٢٩).
١ـ **معجم البلدان**، بيروت: دار بيروت ـ صادر ١٩٥٥ـ ٥٧.
* اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن واضح (٢٨٤/ ٨٩٧).
١ـ **تاريخ اليعقوبي**، بيروت: دار صادر ١٣٧٩/ ١٩٦٠.

٢ـ المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

* بيضون، إبراهيم.
١ـ **اتجاهات المعارضة في الكوفة**، ط ١، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦.
* الحاجّ علي، عصام.
١ـ **داود بن نُصير الطائي «الفقيه الزاهد»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤/ ١٩٩٤.
٢ـ **الإمام سفيان بن سعيد الثوري «سيّد الحفّاظ»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢/ ١٩٩٢.
٣ـ **الإمام سفيان بن عُيينة الهلالي «محدّث الحرم المكّي»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٤/ ١٩٩٤.
٤ـ **الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي «سيّد المحدّثين»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣/ ١٩٩٣.
٥ـ **الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/ ١٩٩٠.

* الزركلي، خير الدين.

١ـ **كتاب الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

* عمر، فاروق.

١ـ **طبيعة الدعوة العباسية**، ط ١، بيروت: دار الأندلس، ١٣٨٩/ ١٩٧٠.

* ماجد، عبد المنعم.

١ـ **التاريخ السياسي للدولة العربية**، ط ٣، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦.

* النبهاني، يوسف بن إسماعيل (١٣٥٠/ ١٩٣٢).

١ـ **جامع كرامات الأولياء**، بيروت: دار صادر، د.ت..

ب ـ المراجع المعربة:

* فِنسِنْك، أ.ي.

١ـ **مفتاح كنوز السُّنَّة**، نقله إلى العربية، محمد فؤاد عبد الباقي، مركز النشر في مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٤هـ.

جـ ـ المراجع الإفرنجية:

- Encyclopédie de l'Islam.

فهــرس الكتاب